

إبراهيم المحلاوي

دراغونوف

"الوغد المجهول"

الرواق للنشر والتوزيع

دراغونوف

رواية

إبراهيم المحلاوي

الرواق للنشر والتوزيع

دراغونوف
إبراهيم المحلاوي
■ الطبعة الثانية.......... فبراير 2015

الغلاف: أحمد مراد
التصحيح اللغوي: أحمد عبد المجيد
رقم الإيداع: 23908/ 2014
الترقيم الدولي: 6 - 61 - 5153 - 977 - 978
جميع حقوق الطبع محفوظة



3 شارع إدريس - أول شارع الوحدة - إمبابة - الجيزة
هاتف وفاكس: 33100951 (202)
محمول: 01147379183
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

لا أحد يعرف ما لا يمكنه القيام به قبل أن يحاول

إلى

من يرحلون ولا يعودون أبدًا..

هذه الرواية خيال في خيال في خيال

وأيّ تشابه بين مضمونها وبين أحداث أو أشخاص أو هيئات قائمة في الواقع هو من قبيل المصادفة البحتة المجرّدة عن أيّ قصد

الفصل الأول

نسخة طبق الأصل

(٠)

٣٠ يناير ٢٠١١

في صباح هذا اليوم رنّ الهاتف وتم تكليفي بمهمة جديدة..

كان موعد التنفيذ غير معلوم، لكن تمّ التنبيه عليّ بأن أكون رهن الإشارة وعلى أهبة الاستعداد التام في أي وقت..

وجدت ـ كما قال لي المتّصل ـ ظرفًا تحت عقب باب الشقة به تفاصيل العملية وخريطة توضيحية للمكان والشوارع المحيطة به، وبعض الصور.. في الصورة الأولى كان يظهر بظهره وهو يركب سيارته وسط حراسة مسلّحة.. والثانية وهو يرتدي نظارته الشمسية ويلوّح بيده محييًا الجماهير قبل أن يركب سيارته.. والثالثة كانت صورة للسيارة X5.. والرابعة كانت لسيارات الحرس الخاص.. والعديد من الصور المختلفة للهدف..

وجاء اتصال آخر بعد الثانية ظهرًا، واقتصرت المكالمة على معلومة واحدة:

ـ الهدف سيمرّ من الشارع المتفق عليه في سيارة X5 بعد نصف ساعة من الآن.. تحرّك..

كان الهدف قد حلف لتوّه يمين تكليفه نائبًا للرئيس.. وكان المطلوب تصفيته.

كان الأمر بالنسبة لي غريبًا، ولم أكن أتخيل أن يأتي اليوم الذي يتخلصون فيه من كبار مخلّصيهم وأكثرهم دراية بكواليس المطبخ السياسي، بل أكاد أجزم أنه لديه أسرار الجميع وخطاياهم.. لكن هذا هو طابع الدنيا، وقد اعتدت على ذلك طوال سنوات حياتي التائهة، فلا شيء يظلّ على حاله.. وقلت لنفسي:

- ليس هناك داعٍ لأندهش الآن.

في الموعد كنت أقف أعلى بناية ليس لها سور، وكانت الشمس تلمع وسط لطخات من اللون الأبيض في السماء.. استعاد ذهني أيام مجد لا حصر لها، وذكريات طفولة بريئة بلا هم أو وجع.. وقلت متحسّرًا:

- ليس هناك ما يعادل جمال تلك الأيام..

أقحمت يدي داخل سترتي لثوانٍ، وأخرجت منظارًا وضعته أمام عيني ممتازة النظر.. لم استطع رؤية أي شيء.. هناك غشاوة على العدسة.. مسحتها بكمي ونظرت مرة أخرى.. كان الموكب قادمًا من بعيد.. مُكوّن من ثلاث سيارات.. سيارة X5 في المقدمة «الهدف»، وسيارة مدرّعة، ثم سيارة Jeep خاصة بالحرس الشخصي..

المدة الزمنية المحددة للمهمة كانت عشر دقائق، والخطة كانت كالتالي:

تعترض سيارة إسعاف طريق السيارة X5 وتفتح النار عليها بما لا يدع مجالاً للردّ.. لكنّ حرس نائب الرئيس كانوا أبرع مما تصوّرنا، واستطاعوا الدخول في تشابك عنيف سقط على أثره الجميع قتيلاً.. حينها انطرحت أرضًا مبقيًا جسمي في وضعية مسطّحة ـ لم يكن الوضع مريحًا ـ فلويت

جسمي باتجاه الشمال قليلاً وبندقيتي الدراغونوف أمامي، وما من شيء يحجب عني الرؤية.. وبذلت كل جهدي وأنا أنظر من خلال منظار بندقيتي للتركيز على الهدف الذي كان واضحًا تمامًا.. سحبت الزناد ثم انطلقت الرصاصة.(*)

(*) تدوينة قصيرة انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ ١٧ إبريل ٢٠١١.

(١)

كان يجلس على أحد المقاعد يُخفي وجه بقناع غير منتبه للكاميرا، إلى أن نظر لها عندما شعر أنها تُصوّره، فاعتدل قائلاً:

- للتاريخ أحيانًا أساليبه الخاصة في منح الشهرة للبعض وانتزاعها من البعض الآخر.. لو قُبض عليّ من ثلاثين عامًا كان من الممكن أن أصبح من أشهر الشخصيات في تاريخ مصر.. لكنّ الله لم يُرد ذلك.. دعنا من إدخال كلمة «لو» لأنها تأتي بالشيطان..

وتمتم في سرّه:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

ثم تابع قائلاً:

- اسمي.. مصطفى حسين. السن.. ٦٢ سنة. المهنة.. قنّاص محترف حاصل على المركز الأول في بطولة الرماية سنة ١٩٨١.. بعد استخارة الله قررت تسجيل مذكّراتي عن العمليات الاغتيالية التي قمت بها خلال ثلاثين عامًا.. والتي كان آخرها محاولة اغتيال نائب الرئيس،

والتي مضى عليها أقلّ من شهرين.. وتمّ نشر بعض تفاصيلها في تدوينة قصيرة في حسابي على موقع التواصل الاجتماعي Facebook..

عمّ الصمت وأحنى رأسه قليلاً وبدا عليه التفكير، ثم رفعها قائلاً:

- تكون قويًا عندما لا تكون معروفًا.. فحينها لا أحد يعرف كيف تُفكّر ولا أين ستذهب.. ولا يوجد شيء يتمّ تهديدك به..

وقال محذّرًا وهو يشير بسبابته:

- لذلك أريد أن أقول للأجهزة الأمنية التي ستُحاول تتبّعي ومعرفة مكاني؛ لا تُتعبوا أنفسكم، فأنا غير متواجد بمصر.. وغير معروف الهويّة لديكم. أنتم ستسمعونني مثل الجميع.. ستتبعونني وتنتظرون إطلالتي بشغف دون أن يكون في أيديكم فعل أي شيء.. وفي النهاية ستُصفّقون لي..

تنهد ثم صمت قليلاً، قبل أن يقول بنبرة يكسوها الحزن:

- أنا أحد القنّاصين المثيرين للشفقة.. لا يجب عليكم مطاردتي وسحقي، فأنا قنّاص فاشل لا قيمة له، قرر أن يُجرب الحقيقة.. وللحقيقة عندما تفشل.. يجب أن ترحل وتبتعد أقصى ما تستطيع، وإلا كان الموت في انتظارك.. هذه قواعد مهنتنا..

صمت مرة أخرى ثم تابع:

- المشهد الأخير هو الذي يتذكّره الناس مهما كان الفيلم رائعًا أو رديئًا.. هناك دائمًا خطوة واحدة تفصل بين النجاح والفشل.. وأنا لم أُخطئ طوال حياتي في التصويب سوى في هذه المرة التي كُلّفت فيها بإنهاء حياة نائب الرئيس، ومن حينها وأنا مطارد ومطلوب قبض روحي والتخلّص مني بأي ثمن في أقل وقت ممكن.. شهران من

الهرب والخوف والحيرة.. لم أعد أملك أي شيء سوى أن أحكي.. وأخرج كلّ ما دفنته في أعماقي.. لا أريد تعاطفًا أو شفقة من أحد.. أريد فقط أن يُصغي إليّ الجميع.. ويتذكروا دائمًا أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

مدّ يده وأغلق الكاميرا. (*)

(*) فيديو قصيرة نُشر على موقع اليوتيوب بتاريخ ١٧ إبريل ٢٠١١، تمّ تفريغه بمعرفة جهة أمنية.

(٢)

- كيف تمّ اختيار العقيد مجدي المهندس للعمل في جهاز أمن الدولة؟

بدأتُ حياتي مع جهاز الشرطة عام ١٩٨٨ كملازم أول ومدير نقطة شرطة، ثم انتقلت إلى مباحث أمن الدولة في واقعة غير تقليدية بسبب انتقادي لوزارة الداخلية في إحدى محاضرات فرقة كنت أحصل عليها، وقلت وقتها إن مستوى التدريب الذي يتلقّاه ضبّاط وزارة الداخلية لا يتناسب مع حجم التضحيات التي قد تُودي بحياة الكثيرين منهم، خاصة في العمليات الإرهابية التي كانت منتشرة في أوائل التسعينات، ووصل كلامي لوزير الداخلية، وفي نفس اليوم أصدر قرارًا بإبعادي عن العمل لمدة ثلاثة أشهر والتحقيق معي، وانتهت التحقيقات بنقلي إلى جهاز مباحث أمن الدولة.

- ما هي طبيعة التحقيقات التي تمّت معك؟

كانت التحقيقات معي بواسطة لجنة شُكّلت من كبار ضباط أمن الدولة فيما يُسمى بقسم التحقيقات المركزية، وهو معني بالتحقيق في القضايا الكبرى، ووقتها كتبت اللجنة تقريرًا أنني مثقف وإمكانياتي متميزة،

وقابلت رئيس جهاز أمن الدولة واختارني للعمل في الجهاز.. وما فهمته وقتها أنهم اكتشفوني من خلال التحقيق وقرروا استغلالي نتيجة تميّزي، وعملت فترة على ملفات مكافحة الفساد.

- وهل كان يوجد في أمن الدولة قسم لمكافحة الفساد؟

نعم، وكانت طبيعة عملنا هي معرفة الموظّفين المرتشين والتعرف عليهم ومتابعتهم، ولكن ليس دورنا القبض عليهم. لأننا عندما نُقرر القبض على شخص نُرسل إلى الأموال العامة التحريات الخاصة بنا، وعن طريقهم يتمّ القبض على المتهم، وهذا كان جزءًا من الرؤية؛ أن ضابط أمن الدولة أكبر من أن يقبض على مجرد موظف فاسد، وفي الغالب كان يتمّ إعداد ملفات للشخصيات القيادية مثل المحافظين أو الموظّفين الكبار في الوزارات لاستخدامها في الوقت المناسب، وهذا كان جزءًا من مهام عمل أمن الدولة.. وللعلم، كنت أعمل على مرأىً ومسمع من الجميع..

- وماذا حدث بعد ذلك؟

بعد تميّزي في فترة الخدمة تمّ نقلي إلى رئاسة أمن الدولة، وهذا المكان هو الأهمّ والأخطر في الجهاز، ويضمّ صفوة الضبّاط في مصر، وبه عقليات متميّزة ومواهب رائعة، وكل ضبّاط أمن الدولة مستواهم العملي والخدمي أفضل من أي ضبّاط آخرين، بل إنهم أفضل بمراحل، وهذه حقيقة لمستها من خلال عملي.. وفي هذه الفترة بدأت أنتظم في الدراسة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ووقتها أصبح عندي يقين أن العمل في مباحث أمن الدولة لهو مهمة ثقيلة.. فأنت تُمثّل الحائط الأول للدفاع عن هذا الوطن.

- ما حقيقة كتابة ضبّاط أمن الدولة تقارير في بعضهم البعض؟

هذا يحدث بحكم طبيعة المكان وحساسيته. ولكن هناك حيّزًا من الديمقراطية، بمعنى أن هناك رأيًا ورأيًا آخر في مناقشة أسلوب المكان،

ولكن الضباط الذين ينتقدون سياسات المكان لا يُشكّلون الأغلبية، وبالتالي لا يتحكموم في سياساته.

- لكنّك حُوّلت إلى التحقيق بسبب رأي لك لم يُعجب المسؤولين؟

ليس معني أنني أنتقد المكان أنه لا يُعجبني نظام العمل، لأنني لو كنت كذلك فلماذا لم أتركه؟

- ماذا عن التعذيب داخل جهاز أمن الدولة؟

أنا لا أريد أن أستفيض في مسألة التعذيب لأنها سوف تؤدي إلي استياء الكثيرين، وأنا من واقع دراستي للعلوم السياسية على قناعة بأن المرحلة التي تمرّ مصر بها بعد الثورة هي مرحلة محاكمات، ولا يمكن أن نحاسب كل من أخطأ، ولا يمكن أن نُحاسب كل ضبّاط أمن الدولة، لأن هذا يتطلب محاسبة للمجتمع كله، وأمن الدولة هو خطأ للنظام، وعمومًا فإن التعذيب لم يكن الوسيلة الوحيدة المستخدمة في أمن الدولة، وكلّ المعتقلين يعلمون ذلك، وهناك ضبّاط كثيرون في أمن الدولة لم يُعذّبوا المعتقلين وكانوا يحصلون على المعلومة وهم على مكاتبهم، وأنا كنت من هؤلاء الضبّاط.

- ما هي حقيقة تورط أمن الدولة في الفتنة الطائفية؟

مجتمع مصر قبل الثورة لم يكن ملائكيًا، وأيضًا لم يكن شيطانيًا، ولكنّ حادثة القديسين - إن كنتَ تقصدها - من الصعب أن يتورط فيها أمن الدولة بهذا الشكل، فأنا على يقين بأن الجهاز كان يعلم أن هناك عملية يتمّ تجهيزها في هذا المكان وبهذا الشكل، وعندما سمعت اللواء عمر سليمان يقول بأنه أبلغ رئاسة الجمهورية أن هناك حادثًا سوف يقع في هذا المكان قبلها بأسبوع بصراحة ضحكت، لأنه من الممكن أن يضحك بهذا الكلام على الصحفيين، لكنّ ضبّاط الأمن والمخابرات يكتبون تقارير تُشبه ذلك

طوال السنة، وبسبب وبدون سبب حتى يُؤمّنوا أنفسهم، وهذا جزء من عملهم.

- من خلال عملك في أمن الدولة هل كنت تتوقع أن تخرج مظاهرات ٢٥ يناير بهذا الشكل؟

كنت قد كتبت تقريرًا في عام ٢٠٠٦ أُنبّه فيه إلى تدهور العلاقة بين الداخلية والمواطن، ووصفت وقتها أنه إذا حدثت مشادة بين عسكري مرور وسائق تاكسي ستتطور هذه المشادة إلى معركة، وسيقف سائقو التاكسي كلّهم في وجه العسكري، وستنضم إليهم فئة العمال، وسوف تتحول المسألة إلى مظاهرات ضخمة لن يستطيع أحد إيقافها، وهذه أزمة كبيرة، ووقتها أسمينا هذا التقرير «الحدث العارض»، ورفعناه إلى رؤسائنا، وهذه التقارير كانت تُكتب بشكل حقيقي وصريح، ولكن مع تجميلها حتى لا تكتئب القيادات، ولكن لم يرد أحد عليه. (*)

(*) حديث صحفي أجرته الصحفية رشا درويش، نُشر في جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠ إبريل ٢٠١١.

(٣)

وزارة الداخلية

قطاع الأمن الوطني

م/ سري وعاجل

إلى من يهمّه الأمر

بعد التحرّي والبحث بشأن الفيديو الذي تمّ تفريغه في التقرير السابق.. تمّ تحديد المكان الذي رُفع منه الفيديو على موقع اليوتيوب، واتّضح أنه عبارة عن خرابة نائية في أطراف القاهرة، ولكن لم نستطع الوصول إلى الفاعل نظرًا لاستخدامه

«Flash USB Modem» دخل من خلاله على الإنترنت.

وبعد الرجوع إلى شركة الاتصالات أخبرونا أن هذه الفلاش لم تُستخدم سوى مرة واحدة فقط ولم تعمل مرة ثانية من حينها..

وبالبحث والتحرير عن الاسم الذي تمّ تسجيل الخط به وُجد أنه مزيف

وغير صحيح، سُجل بواسطة بطاقة هويّة مزوّرة..

تمت مراقبة المكان لعدة أيام، ولكن لم نتوصل إلى شيء.. وجاري زيادة التحريات. (*)

التوقيع
العقيد/ مجدي المهندس
٢١ إبريل ٢٠١١

(*) وثيقة من قطاع الأمن الوطني.

(٤)

لا داع للثرثرة كثيرًا إلى الصحافة.. ويجب أن تدرك أن النزول درجة إلى الأسفل في هذا العالم لهو شيء مهين.. نصيحة أخيرة من رجل كان يحترمك.. التزم الصمت. (*)

(*) رسالة بدون عنوان مرسلة إلى البريد الإلكتروني للعقيد مجدي المهندس.

(٥)

وجدت صعوبة كبيرة في بادئ الأمر في قتل الأشخاص واستهدافهم عبر منظار بندقيتي الدراغونوف.. كنت أشعر بنغزة في ضميري تُؤرقني وهي تتساءل:

كيف بطلقة واحدة أُنهي حياة روح؟!

كيف أتقمّص دور عزرائيل بهذه السهولة؟!

هل سيهاجمني من أقتلهم في أحلامي ويقضون عليّ؟!

هل سأموت مقتولاً؟!

هل حقًا أفعل الصواب؟!

لكن بعد عدة مرات اعتدت على الأمر وتلاشت الأسئلة من رأسي، وأصبحت أكثر صلابة وتمرسًا في تحقيق أهدافي.

يجب أن تعرفوا شيئًا مهمًا.. أنا لا أُصيب أحدًا بدون سبب، ودائمًا ما يكون لديّ العديد من الأسباب.. أنا لا أقتل لمجرد القتل، بل أقوم بواجبي تجاه قضيتي في تحرير الشعب من هذا النظام الاستبدادي.. كلّ شخص أقتله

هو مشروع قاتل لملايين الأطفال والنساء الأبرياء.. أنا أُزهق روحًا كي أُنقذ عشرات الأرواح.

انضممت متطوعًا إلى الجيش.. وهناك وجد قادتي العسكريون قدرة استثنائية عندي على ممارسة القنص، ما دفعهم لإخضاعي إلى دورات مكثّفة لأصبح بعدها واحدًا من أهم القنّاصين في الشرق الأوسط..

وتدربت بشكل وافر على الأهداف الصغيرة جدًا والبعيدة، وعلى كيفية التخفّي واختيار الأماكن الجيدة حتى لا ينكشف أمري بسهولة، ففي الأجواء الهادئة يجب عدم إطلاق النار بعشوائية، وفي الأجواء الصاخبة يجب تشتيت الجميع نحو هدف وهمي ثم استهداف الشخص المراد في لمح البصر..

وجدت ضالتي في بندقية الدراغونوف التي يعود تاريخ تصنيعها لأواخر عام ١٩٥٠، حيث أُعلن حينها عن مسابقة لتصميم بندقية قنّاصة نصف آلية للجيش السوفييتي. وقد فاز في هذه المسابقة فريق عمل برئاسة المصمم يفغيني فيودروفيتش دراغونوف. وفي عام ١٩٦٣ اعتُمدت البندقية التي حملت اسم مصممها «بندقية دراغونوف القنّاصة».

(SVD – Snayperskaya Vintovka Dragunova)

وصُمّمت طلقات قنّاصة مع رصاصة بنواة فولاذية خصيصًا لهذه البندقية. مع العلم أن بندقية دراغونوف بإمكانها استخدام كل نماذج الطلقات المنتجة محليًا من عيار ٧,٦٢×٥٤ ملم.

إنها بندقية لا شيء فيها زائد، ولا شيء معقد أو حسّاس في التعامل معها.. وليس عليك سوى أن تُسدّد وتُطلق النار..

مرت البندقية بعدة إصدارات حتى وصلت لتكون أقل وزنًا وأكثر

توازنًا، وزُودت بكاتم صوت تكتيكي مع إمكانية أن تركب عليها مختلف أجهزة التسديد البصرية الإلكترونية الحديثة.

صحيح أن دراغونوف ندم على تصنيع هذا السلاح، وكان يواسي نفسه قائلاً:

ـ أأسف لرؤية تلك الأعداد من الأبرياء يُقتلون ببندقيتي، لكنّي أهدئ نفسي وأقول إنني اخترعت هذا السلاح قبل ٦٠ عامًا لحماية مصالح بلادي.

لكن أنا على العكس منه، فرغم مرور كل تلك السنوات لم أندم قط على أي شخص أزهقت روحه. (*)

(*) تدوينة قصيرة انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ ٢٢ إبريل ٢٠١١.

(٦)

في ٢ أكتوبر ١٩٨١

كنت في أجازة لمدة اثنين وسبعين ساعة من الخدمة العسكرية.. وفي المسجد قابلت صديقي عبد الحميد، كان يصلي بجواري، وعندما أنهى الإمام الصلاة مدّ يده لي قائلاً:

ـ تقبّل الله يا درش.

ـ منا ومنك يا شيخ عبد الحميد.

اعتدلنا في جلستنا، ثم سأل:

ـ كيف الحال؟

تمتمت:

ـ الحمد لله بخير.

ثم قال مهنئًا كأنّه تذكّر توًّا:

ـ ألف مبروك على بطولة الرماية، طوال عمرك وأنت ترفع رأسنا.

- الله يخليك .. من بعض ما عندكم.

- لا تقل ذلك.. أنت دائمًا مجتهد وعيناك مثل الصقر في التصويب.. وتستحق كل خير، وأكثر من ذلك أيضًا.

- شكرًا لك.. أخجلتم تواضعنا.

ثم ربّت على ركبتي وهو يقول:

- هيا بنا نمضي إلى منزلي حتى أعطيك ما أرسله زوج أختك.

كان أحد أصحاب عبد الحميد يعمل «تاجر شنطة»، وكنا نعتمد عليه في أن يقوم بمهمة جلب النقود من صديقه التي يرسلها زوج أختي، الذي يعمل في العراق منذ خمس سنوات.

فتح عبد الحميد باب الشقة ودخل وهو يرحب بي قائلاً:

- تفضل يا مصطفى.. تفضل..

دخلت وأغلقت الباب خلفي.. ثم تبعت عبد الحميد الذي اتجه نحو الصالة، والتي كان يجلس بها خالد.. فقال لنا عبد الحميد:

- لن أعرفكما ببعضكما..

- مصطفى عِشرة عمر.

قالها خالد وهو يمدّ يده مصافحًا، ثم أردف يسألني:

- ما أخبار الصحة؟

- تمام الحمد لله.

- والحياة العسكرية؟

- لا جديد.. ملل في ملل.

- ستعتاد مع الوقت على الأمر مثلي.

- أتمنى ذلك.

وقال خالد أيضًا:

- مبروك على جائزة الرماية.. ربنا يوفقك، أنت تستحق.

- أشكرك.

- هل سنظلّ واقفين هكذا كثيرًا؟! تفضّلوا.

قالها عبد الحميد مداعبًا، وهو يشير بيده بأن نجلس.

جلسنا وسقط الصمت علينا قليلاً، قبل أن يطرده خالد قائلاً بنبرة حزن غلّفت صوته:

- على كل حال هذه المقابلة ليست صدفة.

رفعت رأسي نحوه، فأتبع متسائلاً:

- هل يعجبكما حال البلد؟!

نظرنا إليه دون أن نجيبه.. فألقى سؤالاً آخر:

- هل أعجبكما ما فعله السادات؟!

ثم تابع بغضب:

- لقد وصلت به الجرأة ليقول على الشيخ المحلاوي أنه ملقى في السجن كالكلب.. لم يعدّ ثمة احترام لعلماء الإسلام..

وعقّب عبد الحميد بأسى:

- لقد ألقى بنفسه في أحضان اليهود وأتى إلينا بالعار بمعاهدة الزفت..

لم يكفيه الانتصار الزائف على الصهاينة والخيبة التي وصلنا إليها.. بل راح يتطبّع مع العدو، وغيّر الاقتصاد ومناهج التعليم لدمج إسرائيل في النظام العربي..

فقلت مُؤمّنًا على نهاية كلامه:

- كان يومًا أسود على الأمة كلّها..

وقال خالد ساخرًا:

- الأمر لم يتوقف عند هذا الحدّ، بل إنه الآن يُعدّ أوراقه ليُقدّم نفسه كخليفة للمسلمين..

ثم تابع بجدّية:

- مصر طوال عمرها لم يكن لها حظّ في حكّامها.. لا الأجانب ولا المصريين.. الجميع يعاملوننا مثل العبيد.. لا أستطيع إنكار أنهم نجحوا في أشياء، لكن في نفس الوقت أخطأوا في أشياء أكثر.. السلطة عمت بصيرتهم وخدعهم الكرسي، فتخيّلوا أنفسهم آلهة وتصوّرونا أقزامًا.. حتى عندما يوفّقهم الله في قرار أو إنجاز؛ يظلّون يمنّون علينا به، ويعتبرون أنفسهم أصحاب الحق في منحنا الرزق والحياة.. وأن كل النعم التي نحن فيها بفضلهم هم ولا أحد سواهم..

فقلت داعيًا عليهم:

- ربنا يأخذهم جميعًا..

أمّن عبد الحميد، وقال خالد:

- والآن جاء دورنا كرجال عسكريين.

وقال لي عبد الحميد:

- وهذا ما نريدك فيه..

نظرت نحوه مستفهمًا منه معنى كلامه، فجذبني خالد بصوته قائلاً:

- هناك مهمة استشهادية في سبيل الله.. ونحتاجك معنا..

فقلت بلا تردد، دون أن أعرف طبيعة المهمة أو ظروفها أو مخاطرها:

- أنتم تعرفون جيدًا أنني منذ خُلقت وأنا أتمنى الشهادة.. إنها حلم حياتي.

وتساءل عبد الحميد باستنكار:

- وطفلك الذي لم يرَ الدنيا بعد؟!

- دعه يأتي إلى الدنيا وهو يعلم أن أباه شهيد.. أفضل من أن يأتي ويعرف أن أباه شاهد العار ولم يتحرك..

- هل أنت متأكد أنك تريد فعل ذلك؟!

- نعم!

- إذا كنتَ تريد بعض الوقت للتفكير...

قاطعته قائلاً:

- لا!

وابتسم خالد قائلاً:

- إذن اتفقنا!! (*)

(*) تدوينة قصيرة انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ ٢٣ إبريل ٢٠١١.

(٧)

صغر سنه لم يحل دون إثبات جدارته، فهو قنّاص ماهر لا يُخطئ أهدافه أبدًا..

أنصح بضرورة استخدامه خلال الاقتحامات والاشتباكات، فهو سلاح خفيف وله فعالية كبيرة.. (*)

(*) وثيقة مهترئة تعود إلى بداية الثمانينات، غير معلومة المصدر.

(٨)

لم أُصدّق نفسي عندما عرفت أنني سأحقق هذا الحلم.

خرجت من عند عبد الحميد بعقل شارد مضطرب.. أستعيد مشاهد لحياتي السابقة أتذكر كيف أكرمني الله بقضية الالتزام، فقد كنت قبل ذلك أُصلّي بشكل متقطع وأعيش حياتي بشكل عادي، ولم أكن أتصور أن الله سيكرمني سريعًا بالشهادة..

في اليوم التالي قابلني عبد الحميد في المسجد وقال لي:

- أنا أدعوك لتناول الغداء.

- أين؟

- عندي في البيت.

- بمفردنا؟

ابتسم قائلاً:

- بالطبع لا.. هيا بنا.

كان خالد في انتظارنا في المنزل، وعندما رآني رحّب بي، بينما قال عبد الحميد وهو يشير بيده لنتبعه:

- لنذهب إلى غرفتي أولاً حتى نتحدث على حريّتنا.

وهناك فرد خالد ورقة كبيرة تُشبه الخريطة فوق الطاولة، ودارت عيناه القلقة بيني وبين عبد الحميد إلى أن استقرت عليّ، وقال بهدوء:

- أعتقد آن الأوان أن تعرف طبيعة المهمة.

ابتلعت ريقي وأنا أُحدّق فيه دون أن أنبس، فأردف قائلاً:

- سوف نتخلص من الطاغوت!
- من؟!
- أول شخص جاء في ذهنك!
- تقصد الـ...

وقبل أن أكمل هزّ رأسه بالإيجاب قائلاً:

- تمام.. هو من أقصده.

شردت لبرهة، ثم قلت:

- هذه كانت أمنيتي مذ زمن بعيد.. وكثيرًا ما دعوت الله أن يشفي غليلي وأقتل الظالم.
- لقد أتت الفرصة إليك.

وقال عبد الحميد مطمئنًا:

- الله معنا ولن يتخلى عنا، وسيبارك هدفنا المنشود.

تنهّد خالد وراح يأتي ويروح مفكّرًا، فتركناه حتى قال:

- ثمّة ضابط سوف أحلّ محلّه في العرض العسكري.. لقد كُلّفت بالأمر منذ يومين، وهو ما جعلني أُغيّر الكثير في الخطة..

وصمت للحظة قبل أن يضيف:

- عندما كنّا نُجهّز للعرض درست موقع المنصّة وسرعة حركت العربيات، والمسافة بين المنصّة وطابور العرض، وعدد الأشخاص الذين سيجلسون في الصدارة..

فقال عبد الحميد متوجسًا:

- لكن أعتقد أن احتمالات النجاح في العرض العسكري ضئيلة جدًا يا خالد.. التأمين متوفّر بشكل كبير، وليس هناك أي احتمال للنجاح تقريبًا.

فردّ عليه خالد في ثقة:

- إيّاك أن تقول ذلك.. الله معنا.. ثم إنك لابدّ أن تعرف أنني شاركت في عرضين عسكريين في السنتين الماضيتين، وأستطيع أن أقول لك إن من الممكن عمل شيء عظيم بنجاح منقطع النظير..

وصمت خالد لبرهة، ارتسمت خلالها ابتسامة خافتة على ملامح وجهه كأنّه تذكر شيئًا مبهجًا، ثم تابع ساخرًا:

- هل تعرف أنني حدث لي الشرف المزعوم مرتين، ومررت أمام المنصّة وحيّيت الكفرة؟!

وبعد فترة صمت عقّبت حالة الضحك، قلت ملفتًا النظر:

- يجب أن نُجهز عليه قبل أن ينتبه الحرس.

- هذا ما كنت أُفكّر به يا مصطفىٰ..

فقال عبد الحميد:

- إذن يجب أن نضع خطة محكمة..

ردّ عليه خالد:

- لقد فكّرت في كل شيء.. ووضعت كل الاحتمالات، وإن شاء الله لا يُخيّب ظنّنا..

أخرج قلمًا من جيبه، وأخذ يُشير ويُخطّط علىٰ الخريطة التي فردها، وهو يقول:

- الخطة ستكون كالتالي.. ستدخلون في عربة من عربات العرض.. السلاح سيكون جاهزًا في فترة الانتظار.. سيأخذ كلّ واحد منكما سلاحًا ويرجع إلىٰ مكانه، وحين تتوقف العربة أمام المنصّة تقريبًا سوف يرمي عبد الحميد قنبلتين يدويتين ستكونان معه.

قاطعته:

- ولماذا القنابل؟!

- هدفنا ليس السادات فقط.. بل المنصّة بكلّ من فيها، بالإضافة إلىٰ أن القنابل ستُساعدنا علىٰ تشتيتهم حتىٰ نتمكن من هدفنا.

- وكيف ستتوقّف العربة في اللحظة التي نريدها؟!

- تحت تهديد السلاح.. أنا سأكون بجوار السائق.

هززت رأسي متمتمًا:

- تمام.

وتابع خالد:

- بعد أن يرمي عبد الحميد القنبلتين بشكل متتالٍ يمين ويسار المنصة، سأقفز أنا حينها من العربة وأرمي قنبلة ثانية وأفتح النار علىٰ المنصّة.. وبعدها سيأتي دورك يا مصطفىٰ.. ودور بندقيتك..

فقلت متردّدًا:

- نعم.. لكن...

فقاطعني خالد قائلاً:

- السلاح..

أومأت بالإيجاب، ثم تساءلت:

- كيف ستُدخله إلىٰ المعسكر؟!

فأجاب بثقة كست نبرة صوته وملامحه:

- هذا عملي، أنا دبّرت كل شيء.

- إذن علىٰ بركة الله.

- أيّ تغيّر في الخطة سيكون علىٰ حسب الموقف.. الكلّ يجب أن يظلّ في كامل تركيزه.

كان عبد الحميد يراقبنا بذهن متّقد وعقل يقظ وهو يبتسم، ثم قال:

- في البداية لم أكن مقتنعًا بشكل كافٍ بما سنفعله .. لكن الآن أنا لن أترككما تدخلان الجنة بمفردكما أبدًا..(*)

(*) تدوينة قصيرة انتشرت علىٰ مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ ٢٤ إبريل ٢٠١١.

(٩)

وزارة الداخلية

قطاع الأمن الوطني

م/ سري وعاجل

إلى من يهمّه الأمر

بعد التحري والبحث لاحظنا تكرار نشر تدوينات أخرى لنفس الشخص بنفس الطريقة.. مكان نائٍ جديد واستخدام «Flash USB Modem» تُستخدم لأول مرة، ثم التخلص منها بإحراقها أو إتلافها..

وتمّت ملاحظة أن الفلاش يتمّ شراؤها من أماكن مختلفة على مستوى الجمهورية، فمرة من الغربية، وأخرى من الشرقية، ومرة من بورسعيد، وهكذا.. وكلها بأسماء وهمية بواسطة بطاقات هويّة مزيّفة، وأغلبها لأشخاص متوفّين منذ عشرات السنوات.

تمّت مراقبة الأماكن التي دخل من خلالها إلى شبكة الإنترنت لعدة أيام، ولكن لم نصل حتى الآن لأي شيء يقودنا إليه.. (*)

التوقيع
العقيد/ مجدي المهندس
٢٥ إبريل ٢٠١١

(*) وثيقة طبق الأصل من قطاع الأمن الوطني.

(١٠)

٥ أكتوبر ١٩٨١

بزيي العسكري كنت أنتظر خالد وعبد الحميد في قهوة في ميدان الإسماعيلية بمصر الجديدة.. كانت كل الهواجس السيئة تحوم في رأسي، وفي لحظة ما فكّرت في التراجع والعودة إلى ابني الذي سيبحث عنّي عند خروجه للدنيا..

أنهيت فنجان قهوتي، ووقفت أمامي سيارة فيات ١٢٤.. أشار لي عبد الحميد بالركوب فركبت، وذهبنا إلى أرض العرض.. كان خالد قد رتّب كل شيء بعناية.. زوّر لنا وثائق تُفيد بأننا جنود تمّ استدعاؤهم لسدّ العجز، حيث إنه كان هناك نقص في الجنود.. وهكذا دخلنا ثم صُرف لنا «أفرولان» جديدان.. حتى لا يختلف لون زيّنا العسكري عن باقي الجنود.

عرّفنا على عطا وأخبرنا بأنه سيشترك معنا في العملية، وقال لنا:

- لقد استطاع أن يُوفّر لنا الأسلحة والقنابل، وأنا أحتاجه بشدّة في تنفيذ مهمتنا.

لم نعترض، وبتنا في المعسكر هذه الليلة بعد أن درسنا كل شيء، وفي اليوم التالي أعطى لنا خالد أسلحتنا، ثم ركبنا أطقم العربات المخصصة للعرض.

بدأ العرض العسكري بداية تقليدية.. لا جديد فيها..

طوابير من جنود وضباط الأسلحة المختلفة.. حملة الأعلام.. طلبة الكليّات العسكرية.. بالونات وألعاب نارية في السماء..

ثم جاء دور طائرات (الفانتوم)..

وراحت تشكيلاتها تقوم ببعض الألعاب البهلوانية وتنفث سحابًا من الدخّان الملوّن..

وفي نفس الوقت..

قال المذيع الداخلي: والآن تجيء المدفعية..

فتقدّم قائد طابور المدفعية لتحيّة المنصّة، وهو محاط بعدد من راكبي الدرّاجات النارية، أمام الرئيس ونائبه ووزير الدفاع وكبار القادة والضيوف وكاميرات التلفزيون.. توقّف فجأة أحد هذه الموتوسيكلات.. أُصيب بعطل مفاجئ غير متوقع، في تلك اللحظة انحرفت العربة التي تُقلّنا إلى اليمين، ونزل منها خالد وهو يرمي القنبلة في اتجاه المنصّة، ثم تبعه عبد الحميد ورمى قنبلتين بشكل متتالٍ، ثم أمطر عطا المنصة بالرصاص بشكل عشوائي، بينما أنا كنت قد حدّدت الهدف المراد.. (*)

(*) تدوينة قصيرة انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ ٢٥ إبريل ٢٠١١.

(١١)

رغم تضارب التقارير في الأشهر الأخيرة حول الأوضاع الداخلية واستقرار النظام، ولكن الجيش يبدو وفيًّا وسوف يسمح له بالبقاء في السلطة، ولكن تعترض مسيرة نظامه بعض التحديّات التي تفرضها جماعة الإخوان المسلمين والجماعات المتطرفة والتيارات الناصرية، ونقص إمدادات الأسلحة السوفيتية، وبعض الصدامات بين طاقم العمل المحيط به، إلى جانب سعيهم إلى عزله عما يحدث في البلاد على الصعيد السياسي والاقتصادي، وعدم إطلاعه على المشاكل الموجودة، ما قد يؤثّر على دوره القيادي في حال وقوع اضطرابات..

باختصار فما من خطر يُهدّد السادات باستثناء رصاصة اغتيال أو أزمة قلبية جديدة .. وفي حال حصول شيء مفاجئ له فإن المسرح سيكون حاضرًا لتغييرات جذرية وسريعة.. (*)

(*) جزء من وثيقة طبق الأصل طرحتها المخابرات المركزية الأمريكية «سي آي أيه» على موقعها الإلكتروني.

(١٢)

كنت أقف فوق ظهر العربة وأُصوّب بندقيتي الآلية عيار ٧,٩٢ نحوه..

وكان وقوف السادات عاملاً مساعدًا في سرعة إصابته.. فقد أصبح هدفًا واضحًا، وكاملاً، ومميّزًا.. وكان من الصعب عدم إصابته.. بعد سنوات عرفت أن الرصاصة الأولى اخترقت الجانب الأيمن من رقبته في الجزء الفاصل بين عظمة الترقوة وعضلات الرقبة.. واستقرت أربع رصاصات أخرى في صدره، فسقط على وجهه مدرجًا في دمائه، حيث اندفع الدم غزيرًا من فمه.. ومن صدره.. ومن رقبته.. وغطّت ملابسه العسكرية المصمّمة في لندن على الطراز النازي الألماني، ووشاح القضاء الأخضر الذي كان يلفّ به صدره، والنجوم والنياشين التي كان يُعلّقها ويُرصع بها ثيابه الرسمية المميّزة.

ألقيت بسلاحي وهبطت من فوق العربة متراجعًا للخلف، واندسست بين الناس الذين كانوا يُهرولون هربًا من هذا الجحيم دون أن يلاحظني أحد.. فقد كان الكلّ مشغولاً بإيقاف وابل الرصاص الذي يُطلقه خالد وعبد الحميد وعطا..

خرجت ومشيت حتى الجهاز المركزي للتنظيم والإدارة، ثم سرت يسارًا في الشارع المحاذي لسور الاستاد، والذي يمرّ من خلاله المترو.. ظللت أمشي حتى وصلت مترو الدرّاسة بشارع صلاح سالم.. ثم اتجهت بعدها يمينًا حتى أوقف سيّارة أجرة، وذهبت إلى منزلي.

عندما طرقت الباب كثيرًا لم يكن هناك مجيب.. فُتح باب الشقّة المجاورة وطلّت جارتنا قائلة:

- لقد ذهبت زوجتك إلى المستشفى بعدما باغتها الطلق.. اصطحبها أبوها وأمها.. ربنا يقوّمها بالسلامة.

فار الدم في رأسي وضربت بقبضتي على الباب بقوة وأنا أزفر بحنق.. فهذا ليس وقته.

ذهبت إلى المستشفى.. وجدت حماي وحماتي أمام غرفة العمليات والحزن يرسم لوحته ببراعة على ملامحهما.. اقتربت منهما بلهفة وأنا أقول:

- ما الأخبار؟! طمئناني..

سقطت الأم في البكاء، بينما قال لي الأب بأسى:

- ربنا يعوّض عليك يا بني.. لقد مات الطفل أثناء الولادة..

كأنّ أحدهم طعنني في ظهري.. لم أتمالك نفسي، ونزلت على الأرض أبكي.

بعدها بساعتين خرجت من المستشفى بعدما اطمأننت على زوجتي، وكنت لا أعرف إلى أين أذهب.. ظللت سائرًا حتى وجدت نفسي أمام بيت مولانا.. طرقت الباب طرقًا خفيفًا.. لحظات وجاءني صوته حذرًا:

- من؟!

فقلت:

- أنا مصطفى حسين يا مولانا.

وفتح لي شيخنا، فبادرته بقولي:

- السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكم السلام ورحمة الله.. أهلاً يا مصطفى.

- هل أتيتُ في وقت غير مناسب؟

- كل الأوقات مناسبة أيّها الفتي.. ادخل..

دخلت وأغلقت الباب خلفي .. وجلسنا في الصالة.

- ما أخبار الأخوة؟!

تساءلت في استنكار:

- من تقصد؟!

- أنا أعرف كلّ شيء يا بني.. فما من شيء يحدث إلا وعندي خبر به.. أين خالد وعبد الحميد؟

- لا أعرف عنهما شيئًا.. لكن في الغالب قُبض عليهما أو...

صمتُّ قليلاً، مما دعى الشيخ ليسألني مستفسرًا:

- أو ماذا؟!

فأجبت بحزن:

- أو ماتا..

- لا تقل ذلك.. سيكونان بخير بإذن الله.

- الوضع كان سيئًا للغاية.. لا أعرف ماذا حدث بعدما رحلت..

- هل أنت بخير؟

أجبت متهكمًا:

- ومن أين يأتي الخير؟

- لا تقل ذلك، فكل ما يأتي من عند الله هو خير ويجب أن نرضى به.

أوضحت له والدموع تتجمّع في عينيّ:

- لقد مات ابني لحظة ولادته..

- البقاء لله..

وربّت على ركبتي وهو يقول:

- وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم..

قلت في حزن وأنا أمسح مياه عيني قبل هطولها بأطراف أصابعي:

- لم يعد لي شيء في هذه الدنيا..

- لا تقل هذا.. أنت مازال أمامك الكثير.. والمجد سيفتح لك ذراعيه.

- وهل يوجد مجد أكبر من الذي قمنا به اليوم؟!

هزّ رأسه بالإيجاب:

- نعم.

- وأين هو يا شيخنا؟

- في أسيوط.

ركبتني الدهشة هاتفًا:

- أسيوط!!

- يجب أن ترحل إلى أسيوط بأقصى سرعة.. الإخوة هناك في حاجة إليك وإلى قنّاصتك..

- ماذا يحدث هناك؟!

- الجهاد في السبيل الله لم ينتهِ، وما حدث هنا مجرد خطوة في طريق بناء دولة الإسلام..(*)

(*) تدوينة قصيرة انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ ٢٥ إبريل ٢٠١١.

(١٣)

وزارة الداخلية

قطاع الأمن الوطني

م/ سري وعاجل

إلى من يهمّه الأمر

بعد التحري والبحث غير المُجدي لم نجد أمامنا سبيلاً آخر سوى تكليف فريق محترف من الهاكر لكي يقوم باختراق حساب الفيس بوك الخاص بذلك الشخص، وكذلك بريده الإلكتروني..

ونحن في انتظار النتائج.(*)

التوقيع
العقيد/ مجدي المهندس
٢٩ إبريل ٢٠١١

(*) وثيقة طبق الأصل لقطاع الأمن الوطني.

الفصل الثاني

الوغد المجهول

(١)

هل تمّ ركني على الرف؟!

ظلّ هذا السؤال يُطاردني منذ أن تمّ تكليفي بتولّي مسؤولية مراقبة عالم الإنترنت وما يحدث فيه بما يهدّد الأمن الوطني..

فبعد أن كنت رجلاً تُوكّل له كل المهام الصعبة والمعقّدة؛ أصبح يُكلّف بالمهمات التافهة والبسيطة.. هل انخفض مستواي إلى هذا الحدّ؟! أم إن هناك أخطاء متراكمة ارتكبتها أدّت بي إلى هذا الهبوط المتدنّي؟ أي أخطاء ارتكبت؟!

لا أريد أن أتذكر شيئًا الآن.. وأقول لنفسي لا داعِ إلى الشطط في الكلام..

خلال اثنين وعشرين سنة من العمل كنت نموذجًا للصادق المخلص المساعد للجميع.. والآن الكلّ يُنكر ذلك.. الكلّ يتبرّأ من كلّ شيء فعلته من أجلهم.. لا أحد يخاطبني.. لا أحد ينتظرني.. لا أحد يريد أن يقترب منّي.. اللعنة على كلّ من في هذا القطاع..

لكنّي أعود وأقول لنفسي: لا يجب أن أضع سيّئات الجميع في خانة واحدة، فليست كل سيّئات وخطايا البشر سواء..

أتذكّر أنني لم أُجرّب الشرّ طوال عملي إلا قليلاً.. دائمًا ما كنت أسعى لتجنّبه والبعد عن طريقه، حتى لا أستهلك منه ما يُدمّر الكثير من البشر ومن ضميري.. لا تصدّق أن أحدًا لا يستخدم الشرّ.. الشرّ جوهرة مطفأة داخلنا تحتاج فقط لمن يدعكها ليظهر بريقها.. وحينها سينمو داخلك دون أن تشعر، إلى أن يستفحل ويصبح إيقافه مستحيلاً.

* * *

ما زالت الحيرة تتدفق داخلي..

في الفترة الأخيرة زاد إلحاح الهروب من هذا العالم يتملكني، وطنين في رأسي يهمس لي باستمرار.. أنت فارغ.. فارغ..

الفراغ يملؤني ويحتويني ويُجنّبني ولا يتركني أبدًا، يظلّ دائمًا معي ليُشعرني بسخافة هذه الحياة وعدم أهمّيتها.. رائحة الفراغ عالقة دائمًا بذاكرتي تُطوّقني مثل أفعى ملتفّة حول رقبتي، وهي في طريقها للقضاء عليّ.. ورغم ذلك أعلم جيدًا أنني في لحظة يائسة ما سأستسلم للفراغ تمامًا.

دائمًا أخشى أن أستيقظ في الصباح.. أخشى من اليوم.. من كلّ يوم.. فأنا لا أعرف جيدًا ما يجب القيام به في تلك الأيام..

واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة.. ستة.. سبعة..

ملل.. ملل.. ملل.. ملل..

في الأيام الأخيرة..

غالبًا ما كنت أحبس نفسي في غرفتي بالساعات، وأتمدد على السرير بعينيّ المفتوحتين على اتساعهما، وأتخيّل ما سيحلّ بي لو أخطأت في هذا المستنقع الذي أعمل به. إنه مفترق الطريق بالنسبة لي، وكان يجب عليّ التوقف لأختار جيدًا أي درب سأسلك، لكنّي استمررت في السير رغم

خوفي ورعبي من كل شيء حولي، ومن كل خطوة أخطوها، ومن كل ما هو قادم من غياهب المستقبل المسكون بالموت..

كان الفراغ هو الذي يقودني.. إلى أي شيء لا أعرف، ولكنّي كنت أسير في طريق اللاعودة وأستمر في السير..

ملل.. ملل.. ملل.. ملل..

منذ شهر وأنا لا أفعل شيئًا سوى كتابة تقارير تافهة عن ذلك الشخص المخبول الذي يدّعي أنه قنّاص محترف، وأنه حاول اغتيال نائب الرئيس، وأنه هو من اغتال السادات.. أيّ جنون هذا!! الأمر حقًا لا يُصدّق أبدًا.. لو مثّلوها فيلم لن يصدّقها أحد وسيخرج الناس من صالة العرض ساخطين على كل صنّاع العمل، وعلى تلك الوجبة الطفولية التي يقدّمونها لهم.. لكنّنا على العكس يجب أن نهتمّ، أو بالأصح ندّعي أننا نهتمّ، فطبيعة عملنا الاهتمام بالتفاصيل البسيطة، فمنها تأتي الكوارث الكبيرة..

في العموم هي فرصة جيدة جدًا لإضاعة الوقت، فليس لديّ ما أفعله، وبالتأكيد سيكون وقتًا مسليًا يُعوّضني عن تلك الأيام التي كنت أحارب فيها الملل..

ملل.. ملل.. ملل.. ملل..

* * *

(٢)

كان ذهني يزداد تشوّشًا وقلقًا من جراء تلك الحياة التي تلصق بي، صفات هشة تقصفني وتتركني أُواجه مصيري بمفردي .. فاقدًا لأشياء كثيرة تتسرب من داخلي دون أن أشعر بها.. وثمّة أشياء كثيرة تتبدّل في قرارة نفسي بين الحين والآخر، فتملؤني الحيرة وتزداد مساحات الفراغ داخل روحي المصمتة..

طُرق الباب.. دخل الضابط شوكت.. ألقى التحيّة العسكرية ثم مدّ يده بملف ممتلئ بالأوراق قائلاً:

- تفضل يا باشا.. الملف المطلوب..

فقلت بامتعاض:

- هل مازلت تتذكّر أنني طلبته منك؟!

وأشرت له بالجلوس.. فجلس.. وقال مبررًا:

- أقسم لك يا مجدي باشا إن الحصول عليه لم يكن سهلاً.. الأرشيف ممتلئ بالملفات أشكالاً وألوانًا، وليس منظم على الإطلاق.. إنه

ملف من ثلاثين سنة، ورغم أهمّيته كان العثور عليه صعب جدًا.

- على كلّ حال رائع أنك وجدته.

وصمت قليلاً، قبل أن أسأله في استنكار:

- هل قرأته؟!

فقال بارتباك:

- نعم.

- وماذا وجدت به؟

فقال بلا تردد:

- لا شيء.. فقط نفس الكلام المعروف.

- قضية غريبة.. أشعر أننا محجوزون داخل متاهة..

ثم تساءلت عقب صمت قصير:

- وماذا علينا أن نفعل الآن؟

- نستمر في المراقبة.. إلى أن يقع في المصيدة..

- وهل سيقع بهذه السهولة؟

- لسنا متعجّلين.. فكما تعوّدنا أن كل قضايانا تحتاج إلى حطب وفير لتشتعل جيدًا.

وتساءلت في ريبة:

- وموضوع نائب الرئيس؟!

- لم نصل بعد إلى أي معلومة مؤكّدة.. تفاصيل ما حدث مستعصي

جدًا الحصول عليه الآن.. الكلّ متكتم على الموضوع بشكل مريب.. أعتقد أنها أوامر نائب الرئيس.. لكنّ هناك بعض الطرق التي نستطيع السير فيها، ولكن بشكل ودي..

فسألته عمّا يعني، فأجاب:

- وزير الخارجية.. هناك أقاويل بأنه مرّ بسيارته في وقت الحادث.. وشاهد كل شيء..

سألته مستهزئًا:

- هل سيُفيدنا بتلك المعلومات ويُضحّي بعلاقته مع الكبار من أجلنا؟!

فأجاب مبهوتًا:

- ربّما!!

فكّرت قليلاً وقلت:

- هذا الطريق صعب ومخاطره كثيرة، ومن حيث لا ندري من الممكن أن نلفت الأنظار نحونا ويتمّ إقصاؤنا من القضية كلّها.. فعندما يتعلق الأمر بالكبار عليك بسلك الطرق غير المرئية..

ثم قلت مداعبًا:

- من الأسهل أن ننتظر وقوع هذا الوغد في المصيدة..

فردّ شوكت ساخرًا:

- سيأتي إلينا يا باشا.. مهما طال به الزمان.. وهل يوجد أحد يُفلت من قبضتنا؟!

لم أنسجم مع سخريّته، ونظرت له مفكرًا دون أن أنبس، ثم قلت:

- هل تعتقد أن هذا الشخص مجنون؟

هزّ رأسه نافيًا:

- مجنون.. لا أُرجّح ذلك على الإطلاق.. كلامه في الفيديو لا يدلّ على أيّ جنون، بالإضافة إلى طريقة كتابته وأسلوبه.. إنها تقول بأنه شخص واعٍ جدًا ومدرك لكل شيء يفعله.

- هل يتسلّى بنا؟!

- يتسلّى!! صعب.. لكن من الممكن أن يكون مرميًّا علينا من أحدهم!

- مثل من؟!

أجابني والحيرة تملؤه:

- لا أعرف.. لكنّ هناك شيئًا غريبًا، أو بمعنى أدق؛ السؤال الذي يجب أن نجد له إجابة.. لماذا يفعل كل هذا؟! وما الذي يريد الوصول إليه؟!

- وأنت، ماذا تظنّ؟

أجاب في حيرة:

- لا أعرف.

قلت بعقل شارد يُفكّر في شيء ما:

- يجب أن نجد إجابات مقنعة لكل هذه الأسئلة في أقرب وقت.

* * *

كان الملف ممتلئًا بالأوراق التي اصفرت حوافّها وبهتت حروفها.. قرأتها كلّها في يومين متواصلين، ولم تكن تحتوي أي شيء جديد يمكن أن نستفيد به لمعرفة هويّة ذلك الوغد المجهول..

فردت قدمي على سطح المكتب وأرحت رأسي على مؤخّرة الكرسي، مفتّشًا عن هدوء داخلي يُريحني من تلك الدوّامة التي سقطت بها.

لست على يقين من أي شيء.. حياتي بلا هدف أو غاية، ولا أملك أي دليل يُقنعني أنني أمضي نحو الخلاص..

أُفكّر بأشياء كثيرة مبعثرة داخل عقلي ولا أتوقف عند أيّ منها، عبثًا حاولت لكنّ اندفاع الأفكار لا يُسعفني.. سألت نفسي هل عليّ أن أُحبط أم أواصل البحث؟! وقبل أن أُجيب رنّ هاتفي الذي قبضت عليه وضغطت على أحد أزراره المضاءة.. كان شوكت، جاءني صوته مذعورًا:

- يجب أن تأتي إلى هنا فورًا يا باشا.

- أين؟!

- في غرفة المراقبة.

* * *

كالعادة كان يُخفي وجه وهو يتحدّث.

- أعتقد أنكم مازلتم غير مصدّقين أنني قنّاص محترف وقادر على أن أصطاد من على بعد ٢٠٠ متر صرصارًا صغيرًا.. سوف أجعل الجميع يُصدّقون.. غدًا سأبرهن لكم أنني لا أكذب، وأنني صادق في كل كلمة كتبتها أو تلفّظت بها.

انتهى الفيديو عند هذا الحدّ. نظرت نحو شوكت الذي كان يُحدّق بي

منتظرًا تعليقي على هذه «الهرتلة» الجديدة.. فقلت باستهانة:

- لا أعتقد أنه سيفعل شيئًا.. كلام في الهواء..

ردّ شوكت متوجسًا:

- لكنّ لهجته غير مطمئنة.. إنه يتحدث بثقة غير عادية..

فقلت متهكّمًا:

- ما الذي بإمكانه فعله؟! هل سيقتل رئيس الوزراء؟!

- لا أعرف، لكن يجب أن نأخذ حذرنا ونرفع درجات الاستعداد لأي شيء.

- شوكت.. إنه شخص مخبول لا أكثر من ذلك.

- لا يوجد لدينا ما يُثبت أنه مجنون

- وهل هذا كلام شخص عاقل؟!

- لنفعل ما علينا فعله حتى لا نوضع تحت طاولة المساءلة لو حدث أي شيء.

كان الأمر يزداد غموضًا فوق غموض.. ولم أكن أعرف ما الذي عليّ أن أفعله سوى أن أكتب تقريرًا جديدًا حتى أُخلي به مسؤوليتي إذا حدث شيء مستقبليًا..

* * *

(٣)

عندما عدت إلى مكتبي كان ينتظرني، وقف بمجرد رؤيتي.. كان شخصًا متوسط القامة متين البنية عريض الصدر ملامحه غليظة، جبينه العريض المعتدل الطول يمنح وجهه شخصية خاصة، ولديه عينان صغيرتان وذقن طويلة..

بادرته بقولي وأنا أُحدّق به:

- من أنت؟

- أنا من طلبت مقابلته.

هززت رأسي كأنّي عرفت من يكون:

- الشيخ رسلان!

- تمام سيادتك.

- تفضّل يا شيخنا.. استرح..

جلس وهو يُحدّق في الأرض ويستغفر ربه عبر حبّات سبحته التي

تتساقط الواحدة تلو الأخرى، بينما جلست أنا خلف مكتبي.. أشعلت سيجارة وسألته:

- هل تُدخّن؟

ردّ متوجسًا:

- أعوذ بالله.. ربنا يتوب عليك منها..

- آمين يا مولانا.

وقال أيضًا:

- إنها تخرب الصحة وتُبدّد المال.

- ادعُ لي يا شيخ أن أُقلع عنها.. لقد حاولت كثيرًا ولم أستطع!

- اعقد النيّة الصادقة وتوكّل وسوف يُساعدك الله.

جذبت نفسًا عميقًا من سيجارتي ونفثته بهدوء، وسألته مغيّرًا مجرى الحديث:

- هل تعرف لماذا أنت هنا؟

- هل ستفرق إذا كنت أعرف أم لا؟

- بالطبع تفرق.. ستُوفّر عليّ الشرح والتفاصيل..

قال متسائلاً بلا مقدّمات:

- إذن.. ما الذي تُريد معرفته تحديدًا عن مصطفى؟

- أنت تعرف إذن كل شيء كما توقعت!!

هزّ رأسه:

- نعم.. وأعتقد أنني هنا لكي أساعدك.

- رائع كبداية.. إذن قل لي؛ هل هو فعلاً شخص حقيقي؟!

ضحك الشيخ رسلان حتى بانت أسنانه.

- طبعًا.. بالتأكيد ليس من درب الخيال.

- إذن كل ما يقوله صحيح؟!

تلاشت الابتسامة سريعًا وحلّ محلها الجدّية:

- ليس من حقي أن أُثبت أو أنفي.. أنت تعرف جيدًا أن هناك أشياء أكبر منّا جميعًا.

قلت منفعلاً:

- لكن ليست أكبر منّي أنا!!

ابتسم وقال ببرود:

- لا.. وأكبر منك أنت أيضًا..

- ماذا!!

قلتها بذهول وتشتّت من شدّة الانفعال.

- الموضوع يخصّ شخصيات كثيرة مهمة فوق وتحت.. هناك من هو على قيد الحياة ومن وافته المنيّة .. نصيحة من رجل علّمته الدنيا كثيرًا.. أغلق هذا الموضوع ولا تبحث في تفاصيله.. لأنك أول من سيُضحّون به.

أثار اهتمامي فحدّجته بنظرة داعية للمزيد من الإفصاح قائلاً:

- ماذا تقصد؟!

- هل تظنّ أن شخصًا إرهابيًا على حسب تعريفكم له، إمكانياته محدودة كما تعتقد.. كيف حاول اغتيال نائب الرئيس؟! وكيف نفّذ هذه المهمّة دون أن يتمّ القبض عليه؟! ومن أين أتى في الأصل بالمال ليُنفّذ ذلك؟!

قلت دون تفكير:

- مثلما اغتالوا السادات.

سأل باستهانة:

- هل تعتقد ذلك؟!

فقلت واهتمامي يتصاعد:

- ماذا تقصد؟!

ابتسم ثانية وقال:

- قصدي أنت تعرفه جيدًا.. فأنت من داخلك غير مقتنع بما تقول.. أنت تكذب على نفسك يا باشا، وتُحاول أن تهرب من الحقيقة التي أمامك.

- أي حقيقة هذه التي أهرب منها؟!

- فقط كن صادقًا مع نفسك وستجدها أمامك.

لذت بالصمت قبل أن أسأل في رجاء:

- من هو هذا الشخص يا شيخ؟!

- قنّاص.. قنّاص مأجور.

- وضّح أكثر.

- شخص منسي من أوراق الأمن..

- وضّح أكثر.. نحن لسنا في لعبة ألغاز!

- لقد قلت لك إنه من الصعب عليّ قول كل ما أعرفه.. لكن أستطيع أن أدلّك على طريق تسير فيه..

قلت محذّرًا بشيء من الحدة:

- أرجوك لا تستفزّني وتجعل الأمر يكبر في رأسي لأدفعك للاعتراف بكل شيء بالقوة.. هل نسيت أين أنت؟!

فقال ببرود:

- لم أنسَ.. لكن مثلما قلت لك لن يسمح لك أحد بالنبش في هذه القضية.. أرجوك، استخدم هدوءك ولا تندفع كالثور الهائج..

صمت قليلاً مفكرًا في حديثه وفي نبرة الثقة التي يُكلّمني بها.. ثم قلت مستفسرًا:

- الآن هو يُهدّدنا بأنه سيفعل شيئًا لكي يُثبت صدق كلامه.. ما الذي تعتقد أنه سيفعله؟!

هزّ رأسه نافيًا وهو يقول:

- لا أعرف.. لكن غالبًا سيقتل شخصًا مهمًّا.

- شخصًا مهمًّا.. مثل من؟!

- لا أعرف.

تنهدت ثم أطفأت السيجارة، بينما هو يزيد الأمر غموضًا وتعقيدًا بعدما أثار اهتمامي لدرجة لم أتوقعها.. قال:

- هناك من يريده.. وعلى استعداد لفعل أي شيء حتى يصمت تمامًا.

- من؟!

- من الطرفين..

- وضّح أكثر..

- رأسه مطلوبة بأي ثمن.

بشيء من العصبية قلت:

- أنا سؤالي واضح.. لحساب من؟!

- لحساب من تُفكّر فيهم حاليًا.. لحساب هؤلاء الذين لا تستطيع أن تتلفّظ بأسمائهم..

نظرت نحوه دون أن أنبس مفكرًا، فتابع قائلاً وهو يهزّ رأسه:

- .. تمام.. هم بالضبط من تُفكّر بهم الآن.

أدركت مغزى ما يرمي إليه، فقلت في شك:

- وما الذي يُثبت لي ما تقوله؟!

تفحّصني بنظرة ثاقبة وقال:

- لا شيء.. لأن أساس الحكاية مدفون منذ زمن بعيد.. ولا أحد يستطيع أن يُثبت لك أي شيء.. إما أن تُصدّقني.. أو لا تُصدّقني.. الأمر في غاية البساطة..

تطلّعت إليه ولم أُعلّق.. ثم تركني الشيخ ورحل وترك الحيرة داخلي، زرعها بكل إتقان داخل تربة عقلي الذي لم يكفّ عن التفكير حتى شعرت بالصداع مرة أخرى.

* * *

(٤)

«كنت أقف مع مجموعة كبيرة من الناس.. كنّا ننتظر قدوم الرئيس ونائبه.. وعندما اقترب الموكب هلّل الجمع فرحين:

- عاش الملك.. عاش الملك..

ظهر الملك ونائبه، كل منهما على عربة حربية يجرّها حصان..

وعقب مرورهما هتف جمع صغير من الناس غاضبين:

- يسقط الملك.. يسقط الملك..

ثم قاموا برمي مناديل مُكوّرة غطت المكان الذي مرّت منه العربتان البدائيتان لكي تعيقهما عند عودتهما وتنقلب بهما.. لكنّ مجموعة أخرى تقدّمت وأزالت المناديل الملقاة بسرعة، فباغتهم ثلاثة رجال متشابهين تمامًا في الشكل والمظهر، وصبّوا غضبهم عليهم.. ودارت معركة حامية بينهم لم ينتصر فيها أحد، بل أُنهكوا ووقعوا من التعب..

عادت العربتان ومرّ الرئيس بسلام، لكنّ عربة النائب تعثّرت ببعض المناديل وانكبّ على وجه مرتطمًا بالأرض الصلبة، وانفجر الدم من رأسه..

رفعت نظري نحو الرئيس.. لم أجده، ووجدت جنودًا كثيرين بلباسهم الأسود قد انتشروا في كلّ أرجاء المكان، واختفى الحشد وبقيت آثار عربة الرئيس ظاهرة بوضوح».

استيقظت على يد تهزّني برفق وهي تنادي عليّ.. فتحت عيني وأنا لازلت أشعر بالصداع.. كان شوكت.. فركت عيني بأطراف أصابعي، وقلت:

- ماذا هناك؟!

- الشخص الذي يُدعى مصطفى..

- ما به؟!

- كتب status على الفيس بوك يقول فيها بالنص..

وفرد الورقة التي في يده وقرأ:

- لقد حاولوا اغتيالي.. لكنّ الله سلّم.

فكّرت قليلاً ثم قلت محدّثًا نفسي:

- إذن الشيخ رسلان كان على حق..

وأمرت شوكت:

- أرسل إلى رسلان ليأتي إلينا على وجه السرعة، ومن فضلك اطلب منهم أن يصنعوا لي فنجان قهوة حتى أفيق..

* * *

كانت تحوم برأسي أسماء وظلال ووجوه وأصوات لا حصر لها.. كان ذهني مضطربًا وفي حالة من الهشاشة، فعوّلت على فنجان القهوة الثقيلة

تمنحني يقظة أستطيع بها استكمال يومي المرهق والكئيب..

طوال حياتي تُطاردني أحلام كثيرة تظلّ عالقة في مخيلتي، ولا أستطيع التملّص منها تاركة أثرها في نفسي..

رنّ هاتفي، كان أحد العاملين في المصحّة النفسية، أخبرني أن أبي حالته سيئة وأنني يجب أن أذهب لرؤيته علّه يستعيد شيئًا من عقله المفقود..

- هل الوضع خطير؟!

هكذا سألت في خوف.

- نعم.. إنه في تدهور مستمر.

أبي مصاب بالجنون، يُعاني من وهم «كوتار»، أو متلازمة كوتار، أو متلازمة الجثمان السائر.. كل هذه مسميات لاضطراب عقلي نادر جدًا، فيه يشعر المريض -شعورًا وهميًا- بأنه ميّت، غير موجود، متعفّن أو فقد دماءه أو أعضاءه الداخلية.. وأضاف لي الطبيب حينها:

- الخطر الأكبر في توهّم المصاب بأنه سيخلد في هذه الدنيا، وللأسف يحاول إثبات هذه النظرية فيُقدم على الانتحار.

في البداية كان أبي حزينًا طوال الوقت، مضطربًا لا يُحدّث أحدًا، انعزل اجتماعيًا وابتعد تمامًا عن كل ما يربطه بالبشر، ثم أصبح لا ينام.. لا يأكل ولا يشرب ولا يتكلم، ويزعجه الضوء، ومع الوقت أهمل نظافته الشخصية.. حدة المرض ألقت به إلى وحدة أعمق وأشدّ قسوة.. وعندما كنت أحاول أن أقترب منه وأسأله:

- ما بك يا أبي؟!

كان يردّ عليّ والخوف يعتصر مسامات وجهه:

- العالم سيتمّ تدميره خلال ساعات.. بعدما مات الجميع من الجبن.

ثم بكي وهو يقول:

- حتى أنا أصبحت جثة ميّتة.. أنا جبان يا بني.. جبان

ساءت حالته عندما بدأ بإنكار وجود أعضاء كثيرة من جسده، وكان يقول لي:

- الدم ينزف مني بغزارة وبدأت أتعفّن.. هل ستترك العفن يسمم ما تبقى من جسدي..

- لا تخف يا أبي.. أنت بخير.

حينها ضممته إلى حضني.. كانت أول وآخر مرة أفعل فيها ذلك.

* * *

(٥)

قال بلهجة محايدة وحبّات المسبحة تنزلق من بين أصابعه:

- سأحكي لك ما أعرفه وأجري على الله.. مصطفى قنّاص مثلما نقولها بالبلدي «ماجبتهوش ولادة».. عينه مثل الصقر.. يعرف جيدًا كيف يصطاد الهدف من على بعد مئات الأمتار.. نشأ محبًا للدعوة وللدين، ومثل أيّ شاب غيور على دينه كان لديه استعداد أن يخدم ويُقدّم حياته في سبيل الدعوة وإقامة دولة الإسلام.. عندما عرضنا عليه أن يشارك في اغتيال السادات وافق بدون تردّد.. كان أيامها حاصلاً على جائزة في مسابقة الرماية.. والحمد لله شارك ووفّقه الله وخلّص مصر من الطاغوت..

قطّبت حاجبيّ مستنكرًا:

- لحظة من فضلك.. القنّاص الذي تتحدّث عنه قُبض عليه بعد الحادث بثلاثة أيام.. أليس كذلك؟!

- نعم هو كذلك.

- إذن هل هو شخص جديد لم يرد اسمه في التحقيقات؟!

- سأُوضّح لك هذا اللبس الذي حدث، لكن قبل ذلك اسمح لي ببعض الأسئلة.

- تفضّل.

توقّفت يده عن التسبيح واعتدل في جلسته، وسأل بصوت منخفض:

- لديك في الأوراق الرسمية؛ متى تمّ القبض عليه؟

تمتمت:

- بعد الحادث بثلاثة أيام..

- وأين تمّ القبض عليه؟

- في بيته وبدون أي مقاومة..

- دون مقاومة.. وماذا حدث له بعد ذلك؟

- حُكم عليه بالإعدام وانتهت القضية.

- هذا ما يعرفه كلّ الناس.. لكن ما لا يعرفه أحد أن من تمّ القبض عليه كان مجرد شبيه لمصطفى..

- نعم؟!

- كان من المستحيل أن نضحّي بأفضل سلاح نمتلكه.. فكلّفنا أحدهم، وكان قريب الشبه منه، ليحلّ محلّه مع تبديل الأسماء بينهما.. وهرّبنا مصطفى إلى أسيوط.. لأن المعركة هناك كانت في لحظاتها الحاسمة، وكنّا بحاجة شديدة له..

وظللت مبهوتًا مما أسمع، ثم قلت مشكّكًا:

- لحظة.. لحظة.. شيخ رسلان، هذا الكلام غير معقول ولن يُصدّقه أحد.. أنت تُداعبني.. وأنا لا أحبّ ذلك.. لأنه كلام من رابع المستحيلات أن أُصدّقه!

- عيب يا باشا، أنا لا أمزح أبدًا.. أنا رجل أعرف ربنا، والمزاح عندنا يُحتسب كذبًا، وأنا لا أكذب!

فقلت مستنكرًا:

- ما أسمعه شيء لا يُصدّق يا مولانا!

ندت عنه تنهيدة وقال:

- كلّ ما عندي قلته .. وأنا مضطر أن أرحل الآن، لدي مصالح أريد أن أنهيها قبل صلاة العصر.

انتصب الشيخ واقفًا وهو يُحدّق في الأرض، وعاد ليفرك حبّات مسبحته، ثم قال:

- اسمح لي بالانصراف يا باشا.

فقلت بلا تردّد:

- تفضّل..

خرج وأغلق الباب خلفه.

ورحل تاركًا دائرة الحيرة تتّسع داخلي.. هل عليّ أن أُصدّق هذه الخزعبلات؟ لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا أبدًا.. لو ذلك صحيح.. لا.. لا.. لكانت صفعة القرن بلا جدال..

كان عقلي يتناطح بالأفكار والتحليلات إلى أن شعرت بالتعب وبالصداع يدبّ في رأسي، فطلبت فنجان قهوة، وإلى أن أتى كنت قد غفوت قليلاً

وحلمت بشخص يدعى مصطفى غير واضح الوجه، كان يُحدّق بي وهو يضحك بشكل استفزّني، لكنّي كنت واقفًا بلا حراك والخوف يُخرسني، وأشهر بندقيته نحوي واستعدّ للتصويب.

وضع الساعي فنجان القهوة وانصرف.. كان مذاقها لاذعًا فتركتها، ولم يكن مزاجي يسمح بالنداء عليه وشتمه ومعاقبته على هذا القرف الذي قدّمه لي.. فآثرت غلق أبواب الشيطان، وأخذت حقيبتي وغادرت المكان الذي يُذكّرني دائمًا بالخيبة والجبن.

* * *

(٦)

دخلت شقتي فوجدتها جالسة.. لفتت انتباهي بمظهرها الجذّاب.

كان شعرها ـ وعلى غير عادتها في بقية الأيام ـ مُضفّرًا ومُحلّى بخصلات ذهبية ومُنسكبًا على كتفيها.

- هل يعجبك؟

قالتها رشا عندما وجدتني أُحدّق فيها، فسألتها مستفسرًا:

- ماذا تقصدين؟

- شعري..

أجابني فمها الصغير، فابتسمتُ قائلاً:

- نعم.. أنتِ رائعة اليوم.. مشرقة وجميلة..

سألتني في خبث نسائي:

- ومن قبل.. ماذا كنت؟

- كنتِ أروع من القمر في اكتماله..

ثم أعربت بحركة تلقائية وهي تنهض من مكانها عن الرغبة في الالتصاق بي.. احتضنتني بخجل، فضممتها بقوة إلى صدري.. قبّلتُها وغصنا في نوبة حب..

كان وجهها مفعمًا بالإغراء والحيوية والسعادة عند كل هزّة جماع تحدث.. ولم أخرج من خدر اللذة إلا على إصبعها وهو يُداعب صدري.

قبّلتُ جبهتها وقلتُ بنبرة يُغلّفها الأسى:

- أتعتقدين أنني سأُفلح؟!

فتساءلت مستوضحة وهي تتكئ على مرفقها وتنظر نحوي:

- عمّ تتحدث؟!

- بحثي عن ذلك الوغد الذي يُدعى مصطفى.

- لا أشكّ في أنك ستصل إليه قريبًا.. أنت مخلص دائمًا في عملك..

ثم طبعت قبلة على شفتي وقالت:

- متى ستسمح لي بالنشر في هذه القضية؟

فقلت بامتعاض وأنا أنظر نحو النافذة:

- منذ الحوار الأخير الذي أجريته معي والجميع لا يُطيق لي كلمة ويعاملونني كالمنبوذ.. حتى رئيسي في العمل بعث لي رسالة على الميل وهدّدني حتى أصمت ولا أتحدّث مرة أخرى..

تساءلت باستنكار:

- هل ستظلّون تتكتّمون على الموضوع هكذا؟!

- النشر يُعطي لبعض المواضيع أكثر مما تستحق..

- وهل القضية فعلاً لا تستحق النشر؟!

- بالتأكيد!

علّقت بحدّة:

- لكن النشر يُعرّف الناس بالحقيقة!

- والحقيقة تُوجع الناس وتُعكّر صفوهم.. من اخترع مهنة الصحافة أعتقد أن عقابه سيكون قاسيًا في الآخرة.. لقد ابتلى البشرية بأبشع آفاتها.. تخيلي لو كلّ شيء كان يدار بدون تسليط ضوء عليه، لكنّا نعيش في مجتمع تملؤه الفضيلة والمحبة والثقة، ولكان الخير بيننا إلى الآن.. هل تستطيعين أن تقولي لي من زرع القيم السيّئة والعادات الغربية في أبنائنا؟! من دمّر كل عاداتنا الحسنة وحُسن نيّتنا؟! من علّمنا الشكّ والريبة في كل شيء، والخوف من كل ما حولنا؟! الإعلام أقذر سلاح عرفته البشرية..

- أنت تبعد تمامًا عن الموضوع.. ما علاقة ذلك بمعرفة الحقيقة؟ لن أنكر أن الإعلام به الكثير من السلبيات، ولكن إذا كانت كلّ هذه السلبيات مقابل أن يعرف الشعب الحقيقة؛ فأهلاً بكل السلبيّات.

- تُدمّرون المجتمع من أجل بعض الأخبار!! تهدمون الدولة من أجل أوهام!!

- الحقيقة ليست أوهامًا!

- الحقيقة؟ أين هي هذه الحقيقة؟! أنتِ تتكلمين عن شيء نسبي متغيّر يعتمد على منظور الآخرين للأمور..

ردّت بسخط:

- هذه النظرية لا يؤمن بها سوى رجال الدُول البوليسية.. لأن الحقيقة هي الوجه القذر لأي نظام ديكتاتوري مُتسلّط لا يُفكّر سوى في أن يعيش على آلام المسحوقين وتكميم الأفواه..

- الحقيقة هي أن الناس تريد أن تعيش في سلام.. في راحة وسكينة..

فقالت بتجهّم:

- لعنة الله على الكلمات التي تُشوّه الحقيقة.

لم نكن نكفّ عن المجادلة كلّما تحدّثنا في السياسة وأحوال البلد.. ولم يستطع أيّ منّا أن يُغيّر وجهة نظر الآخر.. لكنّنا ظللنا مع بعضنا.. لم نفترق..

رشا كانت صحفية، وكانت تُحبّني، ولم أكن أُحبّها.. كانت مطلّقة ووحيدة.. وكنت أعزب ووحيدًا.. كانت تحلم بدفع هذا الوطن إلى عالم الحريّات وممارسة الديمقراطية، ومثل جميع المثقّفين كانت ساذجة بما فيه الكفاية لتعيش في أوهام العدالة الاجتماعية والتعبير عن الرأي بحريّة.. ولكن جمعنا حبّ الوحدة والتفرّد والمزاجية والجنس.. كنّا متفاهمين بصورة كبيرة.. لا نفرض شروطًا أو قواعد على بعضنا.. كلّ منّا يفعل ما يشاء في الوقت الذي يريد.. لقد نجحتْ في أن تطرد عنّي شبح الحزن قليلاً وتسقيني بعضًا من نكهات السعادة.

تناولتْ حقيبتها ودسّت يدها داخلها وأخرجت مفكّرة متوسطة الحجم، وأعطتني إياها قائلة:

- مُسودّة كتابي الجديد.

تناولتها منها وأنا أعدل جسدي وأسند ظهري إلى مقدّمة السرير.. ثم أضافت:

- إنه عنكم!

نظرت إليها دون أن أنطق، وفتحت المفكرة ورحت أقرأ:

«جهاز الأمن السياسي في مصر هو أقدم جهاز من نوعه في الشرق الأوسط، بل إن وزارة الداخلية ذاتها تُعدّ واحدة من أقدم ثلاث وزارات في مصر، إذ تأسست عام ١٨٧٨ باسم نظارة الداخلية، ومعها نظارة الجهادية (الحربية أو الدفاع)، ونظارة المالية.

في عام ١٩١٣، وفي ظل الاحتلال الإنجليزي لمصر؛ تمّ إنشاء جهاز للأمن السياسي، لتتبّع الوطنيين والقضاء على مقاومتهم للاحتلال، سُمي «قسم المخصوص».. وقد استعان الإنجليز في إنشائه ببعض ضبّاط البوليس المصري، وتولى إدارته لأول مرة اللواء سليم زكي حكمدار القاهرة. وبعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ تشكّلت إدارتان للقلم السياسي، واحدة للقاهرة والأخرى للإسكندرية، بالإضافة إلى قسم مخصوص يتبع السراي مباشرة، ويرأسه قائد البوليس الملكي، ولم يكن لوزارة الداخلية أية ولاية على هذا القسم، حيث كان قائده يتلقّى أوامره مباشرة من الملك. وبعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ بدأ تراجع الوجود البريطاني في أجهزة وإدارات وزارة الداخلية، وانتقلت مسؤولية الأمن السياسي الداخلي إلى عناصر مصرية من وزارة الداخلية.. وعلى الرغم من اختلاف مسمّيات جهاز الأمن السياسي عبر الحقب التاريخية التي شهدتها مصر؛ من «القسم المخصوص» إلى «القلم السياسي» إلى «المباحث العامة» إلى «مباحث أمن الدولة»، حتى أصبح اسمه «قطاع مباحث أمن الدولة» ثم «جهاز أمن الدولة» وأخيرًا «الأمن الوطني»، لكنّها مجرد لافتات مُتنوّعة لكيان واحد هو إدارة تتبع إداريًا وزارة الداخلية، وتُوكل إليها مهام الأمن السياسي.

تُجدر الإشارة إلى أنه ليس هناك ثمّة قانون يُنظّم مهام واختصاصات جهاز أمن الدولة، خلافًا للمخابرات العامة التي يوجد قانون يخصّها، بينما يخضع جهاز أمن الدولة لقانون هيئة الشرطة الذي يُنظّم العمل في وزارة

الداخلية، وقد أُدخلت عليه تعديلات وضعت المزيد من القيود المُجحفة على ضبّاط الشرطة، بل جعلت مستقبلهم رهن رضا رؤسائهم، تصل إلى حد الإحالة على التقاعد في سنّ مبكرة والعزل والمحاكمة...»

توقّفت عن القراءة محدّقًا فيها.

- ألم يعجبك؟

- ما الداعي له من الأساس؟!

- أنت لم تقرأ شيئًا بعد.. هذه فقط مجرد المقدّمة.. أنا أسعىٰ لعمل كتاب موسوعي عن كل انتهاكات جهاز أمن الدولة منذ إنشائه.

- لماذا تريدين فتح النار عليّ مرة أخرىٰ؟!

- كيف؟!

فقلت بغيظ:

- اسألي نفسك!

- أنا أُوثّق للتاريخ وليس للشهرة.

قلت بانفعال:

- أخبرتكِ أن حوارك الأخير المنشور معي ضرّني.. ترىٰ ماذا تتوقعين أن يحدث معي إذا طُرح هذا الكتاب في الأسواق؟!

اختفىٰ من وجهها أدنىٰ ظلّ لابتسامة، وتمتمت:

- لا تخف، لن أذكر اسمك..

- الجميع يعرف صداقتنا ولن يُصدّقك أحد..

قالت بانكسار:

- آسفة لو كنت تسبّبت لكَ في أي ضرر!

وهبط الصمت علينا، وتركتني وذهبت إلى الحمام لتُهيّأ نفسها، وقفت خلفها أُراقبها وهي تُلملم شعرها وتضع أحمر الشفاه، وعيناها تتحاشى النظر لي عبر المرآة، كانت عيناها المشعّة السوداء تكشف عن براءة حمقاء مسكونة بعبير الحزن، ولكن أربكني رنين هاتفها..

* * *

(٧)

وزارة الداخلية

قطاع الأمن الوطني

م/ سري وعاجل

إلى من يهمّه الأمر

بعد سؤال واستجواب الشيخ رسلان أحد مؤسسي التنظيم في السبعينيات.. أكّد بأن المذكور ما هو إلا شخص غير معروف لكلّ أجهزة الأمن، حيث أوضح بأن الشرطة ألقت القبض على شخص يُشبهه عقب اغتيال السادات.. بينما هرب ذلك الشخص إلى أسيوط.. وجاري التحري والتقصّي لمعرفة المزيد.. نرجو مساعدتنا في الاطّلاع على ملابسات محاولة اغتيال نائب الرئيس، والتي وقعت يوم ٣٠ يناير ٢٠١١، وذلك للأهمية القصّوى، حيث إننا نرى أنه من الممكن أن يكون هناك طرف خيط نستطيع الوصول من خلاله إلى هذا الشخص..(*)

التوقيع
العقيد/ مجدي المهندس
١ مايو ٢٠١١

(*) وثيقة طبق الأصل لقطاع الأمن الوطني.

(٨)

١٥ مايو ٢٠١١

مرّ أكثر من أسبوعين على آخر تسجيل لذلك الوغد المجهول، لم يطرأ أيّ حدث جلل أو وثبة لافتة للانتباه.. لم يطرأ أيّ ارتجاج من شأنه أن يهزّ هذه الدولة الصامدة دومًا في وجه هؤلاء الإرهابيين والمخرّبين، الناكرين لفضلها وكرمها وحبّها لهم.. من يومها اختفى تمامًا.. لم تظهر له أيّ تدوينات أو فيديوهات.. لا حسًّا ولا خبرًا.. لقد ترك فراغًا كبيرًا.. كان يُسلّي وقتي بشكل أفضل مما أنا عليه الآن.. أسبوعان لا أفعل شيئًا سوى مراقبة بعض النشطاء السياسيين الذين لا قيمة لهم على الإطلاق، ولا أعرف لماذا تهتمّ بهم الدولة أو تُعيرهم حتى بعضًا من وقتها.. إنهم لا يساوون ثمن هذا المجهود الذي نبذله في متابعتهم.. هل لو اعتقلنا هذا أو ذاك، هل ستتوقف الدنيا ويثور الناس علينا ويهتفون باسمه؟! قليلون هم من اقتنعوا أن احتجاجات ٢٥ يناير كانت مجرد استثناء، والكلّ يعرف أن لكل قاعدة شواذًا، ومهما توفّرت نفس الظروف والعلامات والأجواء فإن الماضي لن يُكرّر الحدث مرة ثانية.. التاريخ لا يُكرّر نفسه سوى مع الأغبياء.. و هناك شيء أهمّ، فطالما عقولهم تُصوّر لهم أن حلم الثورة ممكن أن يتكرر بسهولة، وطالما

الأمل الزائف يملؤهم فلن يتحقق شيء.. هكذا هي اللعبة.. لا أحد يخسر الفرصة وتضيع منه بشكل مزرٍ يدعو للسخرية إلا عندما يُفكّر في نتائجها الجيّدة، ويتخيّل نفسه منتشيًا بالنصر وغنائم الحرب من قبل أن يضرب سيفًا أو رصاصة .. إذن لندعهم ينتشون وينتشون أكثر بالحلم والتغيير والحريّة والديمقراطية.. وفي النهاية لن يجنوا سوى الخيبة ثم الخيبة ثم الإحباط ثم اليأس، ثم الرضا الإجباري بالواقع، ثم الموت دون ابتسامة..

لا أحد يتعلّم ولا أحد يريد أن يؤمن أن الحريّة لا يجب أن تُعطى لكلّ الناس.. الحريّة سلاح خطير يُدمّر الجميع.. ليس كلّ الناس لديهم ضمير مستيقظ حاد يقودهم نحو الصواب، وليس الجميع يمتلك عقلاً واعيًا مدركًا لمفاهيم التغيّر..

أمسكت بالقلم ورحت أكتب بعض التقارير عن هؤلاء النشطاء الأغبياء..

بعد قليل رنّ هاتفي وجاء الصوت باكيًا:

- البقاء لله..

انتفض قلبي من الرعب:

- من؟!
- شوكت!
- كيف؟!
- تمّ اغتياله منذ دقائق..

* * *

الفصل الثالث

الانتفاضة العاطفية

(١)

عاجل| استشهاد ضابط أمن دولة برصاص قنّاصة أمام منزله بمدينة نصر

صرّح مصدر أمني بمديرية أمن القاهرة، بأن مسلّحين مجهولين قاموا في وقت متأخر من مساء اليوم الأحد باغتيال الضابط «شوكت فوزي» الضابط بجهاز الأمن الوطني أمام منزله بمدينة نصر..[*]

(*) خبر بثّ عبر قناة «ONTv» بتاريخ ١٥ مايو ٢٠١١.

(٢)

كان يُخفي وجهه كالعادة بينما يده اليمني ملفوفة بشاش.. يبدو أنه تعرّض لإصابة بها.. صمت قليلاً دون أن ينبس، ثم قال:

- أصبحت مطاردًا من الجميع.. الحكومة وجهات سيادية وجماعات متطرفة.. الكلّ يخشىٰ أن أبوح بكل ما أعرف.. الكل يريدني أن أخرس وأختفي.. حاولوا قتلي للمرة الثانية، لكنّ الإصابة أتت سطحيّة.. الوقت لم يعد ملكي.. لذلك يجب أن أحكي.. وقبل أن أحكي أعتقد أنكم قد صدّقتم أنني لست بشخص معتوه أو مخبول.. وأن ضابط أمن الدولة الذي قتلته أمام منزله هو خير دليل علىٰ وجودي..

أطرق نحو الأرض كأنّه يُفكّر في شيء ما قبل أن يقول:

- عندما قتلت ذلك الضابط.. تتبّعني اثنان.. ظلا يسيران خلفي، وفي لحظة ما تقدّما قليلاً وصوّب أحدهما مسدسه نحوي، لكنّ رصاصته أخطأت الهدف واكتفت بخدش يدي..

شاشة سوداء..(*)

(*) فيديو قصيرة نُشر علي اليوتيوب بتاريخ ١٦ مايو ٢٠١١، تمّ تفريغه بمعرفة جهة أمنية.

(٣)

احتجت بعض الوقت قبل أن أتمكن من جعل السيارة تسير، وعندما انطلقت وجدت نفسي وحيدًا في الشارع.. وحيدًا مثلما كنت دائمًا.. وُلدت بلا أب أو أم.. عشت طفولتي في ملجأ.. لم أعرف شعور الدفء والأمان.. فقط شعور الشفقة، وهو الذي كنت أتعاطاه من الجميع..

في عتمة الليل بدا كلّ شيء مختلفًا.. أعمدة الإنارة.. الإسفلت.. الأشجار.. النجوم في السماء.. القمر.. وحتىٰ ذلك الحزن الذي يعتصر قلبي ألمًا علي طفلي الذي لم يرَ الدنيا..

خفّفت من سرعة السيّارة عندما اقتربت من المكان الذي نبّهني إليه مولانا.. أوقفت السيارة وانتظرت قليلاً.. دقائق وظهر رجل عجوز أشيب بجلباب أبيض.. أشار لي بعلامة النصر، ثم أطلّ برأسه داخل السيارة متسائلاً:

- أبو يعقوب؟

هذا هو اسمي الجديد كما أخبرني مولانا، فأومأت بالإيجاب:

- تمام.

- اركن السيارة وانزل.. سنكمل ما تبقى سيرًا على الأقدام.

أوقفت السيارة على جانب الطريق دون أن أُغلقها، حتى إنني تركت بها المفتاح، ورحت أتتبّع ذلك الملاك الأبيض وهو يسير أمامي بخطى واسعة سريعة.. كان يعرف طريقه جيّدًا، وكان الوقت يقترب من الفجر والبرد قارس بشكل لا يطاق..

- ها قد وصلنا.

قالها عندما رأى شعلة نار تتمايل مع الهواء من بعيد، وكلما اقتربنا كلّما زاد الجو دفئًا.. كنّا نتوغّل في قلب الجبل..

عندما اقتربنا هجم علينا اثنان شاهرين سلاحاهما نحونا، وقال أحدهما:

- من أنتما؟!

اكتفى الشيخ الذي معي برسم علامة النصر بإصبعيه، وكأنها كلمة السرّ.

- أهلاً بكما.. تفضّلا.

وعندما وصلنا رحبّ بي الجميع، وقدّموا لي الطعام ووفّروا لي مكانًا للنوم.

كنت مرهقًا وهجمت عليّ موجة من الاكتئاب، وتذكّرت ابني الذي مات قبل أن أراه، وبكيت حتى استهلكت كل طاقتي، ثم نمت.

* * *

عندما أفقت من رقودي.. كنّا وقت الظهر تقريبًا.. أشار لي أحدهم بأن أتبعه.. يبدو أنه كان في انتظاري حتى أستيقظ.. قادني إلى غرفة يجتمع فيها العديد من المشايخ وقادة التنظيم.. عندما رأوني رحّبوا بي وهتف أحدهم:

- الله أكبر، قاتل الطاغوت معنا..

ابتسمت له دون أن أنطق بكلمة.. ثم أفسحوا لي مكانًا بينهم.. جلست وأنا أتأمّلهم.. كنت أشعر بالغربة وسطهم، ولم أكن أعرف وقتها حقًا هل أنا أريد أن أكمل معهم أم لا.. لم يتركوا فرصة لعقلي ليُفكّر، وقال قائدنا الشيخ زهدي:

- لقد أكرمنا الله بأول خطوة في طريق الجهاد واستعادة سلطة شرعية على الأرض، وخلّصنا أخونا أبو يعقوب ورفاقه من الطاغوت، عليه لعنة الله وأحرقه في نار جهنّم.. والآن فقد جاء دورنا لنأخذ الخطوة الثانية..

قال الشيخ شاهين مقاطعًا:

- يجب أن نواصل قلب نظام الحكم ونتخلّص من الجميع.

فردّ عليه الشيخ عبد الله:

- يجب أن نُفكّر جيدًا، فالأمر ليس بهذه السهولة.. والوضع تغيّر، والأمور زادت صعوبة عن ذي قبل..

فقال الشيخ زهدي معاتبًا:

- الوضع لم يتغير بعد، ولا يوجد شيء يصعب علينا.. وسنواصل الزحف نحو الحكم لإقامة الخلافة الإسلامية التي اشتقنا إليها.. لم يبقَ سوى القليل ونرفع راية الإسلام.. لقد مات الطاغوت ولم يتبقَ سوى الخلاص من بقية كلابه..

كنت أستمع لهم بعقل شارد غير مدرك لأي شيء..

- وما الخطّة يا مولانا؟

قالها أحدهم.

نظر زهدي نحوه وهو يتفرّسه كأنّه «يُشبِّه عليه»، ثم قال:

- لنتشاور في الأمر.. ونفكّر سويًّا.. هذه فرصة عمرنا التي لن تتكرر مرة ثانية، ولا يجب أن نُضيّعها مهما حصل.

ظلّوا يتناقشون فيما بينهم ما يقرب من ثلاث ساعات، حتى أشار الشيخ زهدي بيده فتوقّف الجميع عن الكلام وعمّ الصمت، قبل أن يقول:

- بعد التشاور وأخذ الرأي؛ الخطّة ستكون كتالي.. الكلّ يعرف أن مدينة أسيوط لها أربعة مداخل رئيسية.. شمال وجنوب وشرق وغرب.. سنكوّن أربع مجموعات لغلق المدينة.. ومهمّة المجموعات كالتالي: المجموعة الأولي مكلّفة بالاستيلاء على نقطة شرطة اللاسلكي الموجودة بجوار نقطة المرور شمال المدينة، ومنع أيّ قوات للشرطة من الدخول.. المجموعة الثانية مكلّفة بالاستيلاء علي قسم أول أسيوط ونقطة مرور الغرب، وعدم السماح لأيّ قوات بدخول المدينة عن طريق الغرب.. المجموعة الثالثة مهمّتها الاستيلاء على نقطة مرور شرق مدينة أسيوط ومنع أيّ قوات تُحاول دخول المدينة.. المجموعة الرابعة مهمّتها الاستيلاء على مديرية أمن أسيوط وقسم ثانٍ أسيوط، وقتل رجال الشرطة المتواجدين داخل عربات الأمن المركزي، وهذه هي المجموعة التي سينضمّ إليها أخونا مصطفى.. نظرًا لكثرة المهام الملقاة على عاتقها.

قال أحدهم:

- ثم ماذا بعد ذلك؟!

تابع الشيخ زهدي:

- نستخدم مكبّرات الصوت في جميع المساجد لحثّ الجماهير على الانضمام للثورة الإسلامية، ثم تعبئة هذه الجماهير بعد إعطائها السلاح، والخروج بها إلى المحافظات المجاورة للاستيلاء عليها..

علّق الشيخ عبد الله وهو غير مصدّق لما يسمع:

- هذا جنون.. أنتم ترمون بأنفسكم في التهلكة.. الخطّة غير واقعية بالمرة ومن المستحيل أن تنجح.

ردّ عليه الشيخ شاهين ساخرًا:

- الرجال هم الذين سيذهبون.. لِمَ أنت خائف إذن؟!

ثم انفجر ضاحكًا.

- أنا خائف عليكم.. يجب أن نعيد دراسة الخطّة مرة أخرى..

- بل يجب أن تذهب أنت إلى البيت لتحتمي به مثل النساء!

قاطعهما الشيخ زهدي وقال حاسمًا الأمر:

- شيخ عبد الله، لقد وافق الجميع على الخطّة، إذا كنت غير راغب في مشاركتنا في هذا النصر فلا داعٍ لإحباط معنويّاتنا.. ومن الأفضل لك أن ترحل!

نظر الشيخ عبد الله نحوه بطرف عينيه وجال ببصره في المكان، ثم قام ورحل والغضب يلمع على وجهه.(*)

(*) تدوينة قصيرة انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ ١٧ مايو ٢٠١١.

(٤)

كم أفتقدك أيها الضابط الغبي المدعو شوكت! لم أكن أعرف أنني أحبّك هكذا.. لم أكن أعرف أنك تملؤني مثل الهواء.. خدمتَ معي خمس سنوات، وعندما نُقلت لم تتركني وأصررت أن تُرافقني في درجتي السُفلى.. أنا حقًّا ممتن لك ولكلّ ما فعلته من أجلي.. صحيح أنني لم أفعل أيّ شيء من أجلك أبدًا، حتى عندما غُدر بك لم أستطع الوصول إلى الجاني.. أنا عاجز تمامًا، وأنت تعلم هذا جيدًا، وستُسامحني على تقصيري وخيبتي وضعفي وقلّة حيلتي.. أعرف أنك عندما نلتقي في العالم الآخر ستُواسيني وتُربّت على يدي وتقول لي:

- كم أفتقدك يا صديقي!

لم تكن في يوم من الأيام صديقي.. كنت أعاملك كتابعي، أو بالأدق كخادمي.. لم تتذمّر أو تشتكي في أي وقت.. كنت مخلصًا لي بكل ما تعنيه الكلمة..

جيد أنّك لم تنجب أطفالاً وتنشرهم في هذا العالم البائس الذي لا يرحم أحدًا.. حسنًا فعلتَ يا صديقي.. اسمح لي بأن أناديك بصديقي.. سأقول

لك سرًّا.. الجميع مهتم جدًا بالعثور على قاتلك، ليس لشخصك بل لهيبة الزيّ الذي كنتَ ترتديه.. قيمتك كانت في ملابسك.. جميعنا قيمتنا في ملابسنا.. من دون زيّنا العسكري لا قيمة لنا في هذا المجتمع، وعلى قدر ما تُعلّقه على كتفك من نجوم وعلى صدرك من نياشين يكون مقدار الاهتمام بك..

لن أُخفي عليك شيئًا، أنا لن أستطيع القبض على قاتلك، الأمر في غاية الصعوبة، وأنتَ كنتَ تعرف ذلك جيّدًا.. لكن أعدك بأنّي سأهتمّ، والجميع أيضًا سيهتمّ لبضعة أيام، ومع الوقت سنجد قضية أخرى أكبر من موتك فتشغلنا ونهتمّ بها أكثر.

بفضلك أجريت عدّة لقاءات في أكبر برامج التوك شو.. كنت سعيدًا وأنا أحكي لهم عن إخلاصك وتفانيك في العمل الذي لم أُشاهده ولم أعرفه يومًا.. هل أُبالغ في ذلك؟! ربّما، ولكن هناك حقيقة واضحة، أنك كنت ضابطًا فاشلاً.. فاشلاً.. فاشلاً.. كنت مخبولاً وساذجًا.. ومع ذلك أخذتَ أكبر من حجمك وتمّت ترقيتك وقبضت زوجتك عشرات الآلاف نظير شجاعتك وحبّك للوطن.. لتضع عينيك في عيني وتُجاوب على سؤالي.. هل حقًّا أنتَ تُساوي كل هذا؟! أنت لا تُساوي شيئًا أبدًا يا صديقي، وأنا أيضًا لا أُساوي شيئًا.. أنا تمامًا مثلك.. جبان وخائف، ولم أملك أيّ شيء أقوله حيال ضعفي وصمتي، وتنازلت عن راحتي وكياني مع رشا بكل بساطة.. دائمًا ما أُضحّي بها عندما أوضع في الاختيار بينها وبين عملي.. دائمًا ليس لديّ الاستعداد للتضحية من أجل أي أحد، حتى أبي الذي تركته يصارع بمفرده مرضه، مثلما تركت رشا تُصارع طغيان النظام بمفردها..

أشعلت سيجارة ونفثت دخّانها ببطء، وانسابت من ذاكرتي صورة بعيدة للمرة الأولى التي قابلت فيها رشا.. كان قد قُبض عليها في فضّ وقفة احتجاجية صغيرة لحركة كفاية، وكنت أنا من يتولى التحقيق معها.. كانت

ملابسها ممزّقة وشعرها منكوشًا، ويبدو من هيئتها أنها تعرضت للاعتداء، فسألتها:

- هل تعرضتِ للضرب؟!

أجابت:

- نعم!

- هنا؟!

- لا.. في الشارع، أثناء فضّ الوقفة الاحتجاجية.

- على أيّ شيء كنتم تحتجون؟!

قالت بانفعال:

- على الاستبداد والظلم!

كنت قد تلقيت أوامر من رئيسي المباشر بإخراجها بعدما توسّط لها رئيس تحرير الجريدة التي تعمل بها، لذلك لم أشأ أن أدخل في نقاش غير مُجدٍ معها، فقلت بهدوء لاستيعاب حدّتها:

- سأخرجك من هنا نظرًا لعدم وجود أي دليل مادي ضدك.

- أنت لم تحقق معي بعد.

- لقد أنهيت التحقيق، ولا داعٍ للعودة مرة أخرى هنا.

إحساس مبهم جذبني حينها نحوها، ليس حبًّا بالتأكيد، ربما كان الفراغ العاطفي الذي كنت أعيشه وقتها، ويومًا بعد الآخر وجدت نفسي أتصنّع المقابلة تلو الأخرى، وفي وقت قصير تقرّبنا من بعضنا البعض، ونمت بيننا علاقة فروعها طويلة و جذورها هشّة.

جذبني طرق على الباب من شرودي.. كنت ممسكًا بصورة شوكت التي زيّنت بها مكتبي.

- ادخل.

قلتها فدخل أحدهم.. وضعت الصورة على سطح المكتب وأنا أنظر نحوه.. قدّم التحيّة العسكرية ثم عرّف نفسه قائلاً:

- وائل السيّد.. مساعد حضرتك الجديد يا فندم.

- أهلاً يا وائل.. تفضل.. اجلس..

- شكرًا يا فندم.

جلس وهو يدور بعينه في الغرفة محاولاً طبع تفاصيلها في ذهنه.

أمسكت بصورة شوكت وقدّمتها له وأنا أقول:

- هل شاهدت من قبل من في هذه الصورة؟

تأمّلها وهو يبتسم، فأردفت قائلاً:

- مساعدي.. الشهيد شوكت.

ثم قلت بأسى وأنا أسحب الصورة من أمامه:

- كان من أخلص الأشخاص الذين تعاملت معهم.. لا أعرف إن كنتَ تستطيع تعويضه أم لا..

- أتمنّى أن أكون عند حسن ظنّ سيادتك..

وضعت الصورة على المكتب وأنا أُحدّق فيها قائلاً:

- قلبي منفطر عليه.. أنا أبكي كلّ يوم على رحيله..

بدا وجهي حزينًا، فواساني وائل:

- ربنا يرحمه ويُلهمك الصبر يا فندم.

- آمين يا رب.. آمين..

ساد الصمت قليلاً، قبل أن أقطعه مغيّرًا دفّة الحوار:

- بالطبع أنت تعرف نظام عملنا.

أومأ لي بالإيجاب، فأكملت:

- أكثر ملف قلب الدنيا وشغل كلّ القيادات هو الشخص المجهول الذي اغتال شوكت..

- كانت حادثة بشعة.

أومأت قائلاً:

- بالفعل، لذلك أمامك ٢٤ ساعة حتىٰ تكون مُلمًّا بكلّ تفاصيل القضية..

أومأ برأسه:

- حاضر

سألته في ريبة:

- هل ستُخلص لي؟!

صدمه السؤال، وقال بعد ارتباك:

- إن شاء الله سأبذل ما في وسعي حتىٰ أكون عند حسن ظنّك..

ثم سألني في تردّد:

- هل حضرتك تشكّ بي؟!

- لا.. أنا لا أشكّ في أحد.

تنهّدت في حزن، ثم قلت مغيّرًا دفّة الحوار مرة أخرىٰ:

- هل شاهدت آخر فيديو؟

- أيّ فيديو تقصد؟

- لحظة اغتيال شوكت.. لقد تمّ نشره علىٰ موقع اليوتيوب.

هزّ رأسه.

- أنا بكيت.. بكيت بحرقة.. كان مشهدًا قاسيًا وصعبًا جدًّا عليّ.

رنّ هاتفي، كان رئيسي في العمل.. سألني:

- هل وصلت إلىٰ أيّ شيء في قضية شوكت؟

- مازلنا نجري التحريّات والبحث وتجميع المعلومات.. الموضوع ليس سهلاً علىٰ الإطلاق.. نحن نتعامل مع مجرم مجهول تمامًا لكل أجهزة الأمن...

وقبل أن أُكمل أغلق الخطّ في وجهي.. لاحظ وائل ذلك من تعبيراتي.. فحوّل وجه نحو صورة شوكت.

- هل أنت خائف؟

التفت وائل نحوي مستفسرًا:

- من ماذا؟

- من أن تُصبح نهايتك مثل شوكت؟

- لا.. أو دعني أقول نعم، خائف، لكن ببساطة لا أملك أيّ قوة للهروب من مصيري، لذلك أُحبّ أن أترك الأمور تسير على طبيعتها، فأنا إنسان ضعيف لا يملك أيّ قوة لتحدّي القدر..

- أنا أبحث عن تلك اللحظة التي أستطيع فيها الهروب من هذا الجحيم.

- الإنسان يعيش طوال حياته مطاردًا من أفكاره وهواجسه، ولا أحد يستطيع أن يهرب.. فكلّما هربت من شيء ظهر لك شيء آخر لتهرب منه، وهكذا..

- والراحة، متى نحصل عليها؟!

- عند الموت.. لم يخلق الله الإنسان ليرتاح بل ليشقى في الدنيا.. فالله لم يخلق الراحة في الدنيا بل خلقها في الآخرة.

قلت في أسى:

- الأمر معقّد..

فقال في استسلام:

- كل شيء في حياتنا معقّد..

أخرجت سيجارة وأشعلتها.

- هل تُدخّن؟

أجاب وهو يهزّ رأسه بالنفي:

- لا.

- لماذا؟!

- لم أُحبّ طعم التبغ.

- الأشياء التي لا نُحبّها هي التي تظلّ معنا ولا تتركنا أبدًا.

- الأمر نسبي.

ارتسمت ابتسامة على وجهي وقلت:

- عندك حق.

جذبت نفسًا آخر من السيجارة، وقلت:

- هيّا، عليك أن تبدأ الآن في العمل المطلوب منك.. نريد أن نصل للقاتل في أسرع وقت.

* * *

(٥)

٨/ ١٠/ ١٩٨١

كانت عقارب الساعة تُشير نحو السادسة صباحًا عندما هبطنا من السيارة البيجو القديمة الصنع، وفتحنا نيران أسلحتنا الآلية في محيط مديرية أمن أسيوط..

كانت العساكر تترامىٰ أمامنا مثل الطير المتساقط من السماء..

نفذت ذخيرتي فرميت بسلاحي وأخذت بندقيتي الدراغونوف من داخل السيّارة، ورحت أصطاد عساكر الأمن الواحد تلو الآخر..

كانوا لا يدرون ماذا يحدث لهم، ولا يعرفون من الذي يضربهم، ولا يُدركون ما تلك الخطيئة التي يدفعون مقابلها أرواحهم..

ظللنا علىٰ هذه الحال من التفوّق حتىٰ أتت قوات إضافية وطائرات حربية، وبلمح البصر تبدّلت الأدوار وأصبحت الغلبة لهم..

غلبني التعب وقلّة التركيز، فباغتني أحدهم برصاصة اخترقت منتصف بطني، وهويت علىٰ الأرض والدماء الغزيرة تندفع كالنافورة من داخلي،

حتىٰ أُنهكت تمامًا وانعدمت مقاومتي وأُغشي عليّ..

لم أفق إلا في اليوم التالي في المستشفىٰ..

كانوا قد أخرجوا الرصاصتين من أمعائي.. كنت متعبًا والإعياء يهدّني، ومكبّلاً في رأس سريري الحديدي بالكلبشات، والجنود مدججين بالسلاح فوق رأسي..

بتُّ يومين في المستشفىٰ، ثم رحّلوني إلىٰ السجن في أسيوط، ثم إلىٰ معسكر الأمن المركزي، ثم وضعوني أنا ومن معي في طائرة هليكوبتر وأرسلوني إلىٰ القاهرة، ثم إلىٰ مستشفىٰ سجن لمان طرة..

بالصدفة قابلني صديق قديم كان يعمل طبيبًا، عندما رآني في شرفة العنبر ابتسم لي وحاول أن يتعامل معي علىٰ طبيعته دون أن يلفت الأنظار، وأخذ يكشف عليّ بسماعته الطبيّة.. انتهز فرصة الخلو النسبي للمكان من الروّاد ومال وسلّم عليّ بصوت لا يكاد يُسمع.. رددت عليه السلام، ثم قال لي بنفس وتيرة الصوت:

- كيف هربتَ من الشرطة؟!

- ماذا تقصد؟!

- ألستَ أنتَ قاتل السادات؟!

هززت رأسي بالنفي:

- لا لست أنا.. أنا اسمي أبو يعقوب.

فكّر الطبيب قليلاً كأنّه يزن الأمور في رأسه، ثم قال:

- أنت تُشبه شخصًا كنت أعرفه قُبض عليه في عملية اغتيال السادات.. كان أحد منفّذيها..

وبعد صمت قال:

- أنا مستعد لتهريبك من هنا..
- وما الذي يدفعك لفعل ذلك مع شخص لا تعرفه؟
- ما قمتم به في أسيوط شيء لا يُصدّق ويجب أن تستمروا حتى تُحققوا هدفكم، لذلك مكانك لا يجب أن يكون هنا..

فقلت في استسلام:

- أنا راضٍ بما كتبه الله لي.. ولا أريد أن أُورّط أحدًا معي.

فقال مُلحًّا:

- الهروب هو أفضل حلّ.. عندما تكون بالخارج تستطيع أن تُفكّر جيدًا في كيفية استعادة الأمور مرة أخرى.. لا تُضيّع الفرصة، فالندم بعدها لن يفيدك..
- أنا أخاف على مستقبلك.. مازالتَ صغيرًا على المرمطة.. لو كُشف أمرنا ستذهب في خبر كان..
- اتركها على الله.. لن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا.
- لكن...

فقال مقاطعًا:

- ليس أمامنا وقت كبير.

* * *

في اليوم التالي ليلاً أحضر لي منشارًا صغيرًا ملفوفًا في قطعة قماش وسط كيس به طعام، خبّأته تحت مرتبة سريري في لمح البصر، وهمس لي قائلاً:

- انتظر حتى منتصف الليل ثم اطلب الذهاب إلى دورة المياه.

نفّذت نصائحه وانتظرت حتى هدأ العنبر وخلى من المارة والتمريض. سحبت المنشار من تحت المرتبة ووضعته حول خصري، ثم تسللت إلى الحمام وأخذت أنشر حديد الشبّاك.. كان سيخًا واحدًا كافيًا لإخراجي من هذا الجحيم ليبدأ جحيم آخر لا يقلّ بشاعة.. بل إنه أسوأ ما رأيت طوال حياتي.(*)

(*) تدوينة قصيرة انتشرت علي مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ ١٨ مايو ٢٠١١.

(٦)

أرسلت في طلب الشيخ رسلان مرّة أخرى.. كنت أشعر أنه هو المفتاح الذي سيفتح لي أبواب الحقيقة.. ولِمَ لا وهو أحد كبار مؤسسي الجماعة التكفيرية في القرن الماضي، وكان سببًا في انتشار الفكر الجهادي، قبل أن يُعلن توبته ورجوعه إلى الله والتخلّي عن السلاح ورفض الصراع مع الدولة، بل وتعاونه مع أجهزة الأمن بعدما اقتنع أن السلميّة أقوى من الرصاص.. سُجن بعد اغتيال السادات في قضية تنظيم الجهاد، واتُّهم بمحاولة قلب نظام الحكم بالقوة وتغيير الدستور ومهاجمة قوات الأمن في أسيوط، وتمّ الإفراج عنه في عام ٢٠٠٨ بعدما اعتذر عن العمليات التي تبنّتها الجماعة، وأعرب عن استعداده لتقديم الديّة لكل الضحايا. لذلك كان بالنسبة لي المفتاح الذي سيفتح لي كل الأبواب الموصدة.

عندما جلس أمامي واساني قائلاً:

- البقاء لله.. ربنا يجعلها آخر الأحزان ويجعل مثواه الجنّة..

فقلت بنبرة متعالية:

- بالتأكيد سيكون في الجنّة.. الشهداء مكانهم الفردوس الأعلى..

فتمتم قائلاً وحبّات مسبحته تتساقط من بين أصابعه:

- كلّه علمه عند الله..

- هل لديك أي شك في أنه شهيد؟!

- نرجو من الله أن يحتسبه من الشهداء.

- الكلّ أفتى بأنه شهيد.

ركبته الدهشة:

- الكلّ؟! من تقصد بالكلّ؟!

- رجال الدين.. من علماء ومشايخ.

فقال متجنبًا مواصلة النقاش:

- أتمنى حقًا أن يكون من الشهداء.

باغتُّه بسؤالي قائلاً:

- هل كنت تعرف بأنهم سيغتالونه؟!

- وكيف لي أن أعرف؟ يومها قلت لك إنه غالبًا سيكون شخصًا مهمًّا..

وصمت برهة مفكرًا ثم سأل:

- هل الذي مات شخص مهم؟

هززت رأسي بالنفي:

- لا..

- إذن لقد خدعنا كلّنا ذلك الوغد..

فتمتم قائلاً وحبّات مسبحته تتساقط من بين أصابعه:

- كلّه علمه عند الله..

- هل لديك أي شك في أنه شهيد؟!

- نرجو من الله أن يحتسبه من الشهداء.

- الكلّ أفتى بأنه شهيد.

ركبته الدهشة:

- الكلّ؟! من تقصد بالكلّ؟!

- رجال الدين.. من علماء ومشايخ.

فقال متجنبًا مواصلة النقاش:

- أتمنى حقًا أن يكون من الشهداء.

باغتُّه بسؤالي قائلاً:

- هل كنت تعرف بأنهم سيغتالونه؟!

- وكيف لي أن أعرف؟ يومها قلت لك إنه غالبًا سيكون شخصًا مهمًّا..

وصمت برهة مفكّرًا ثم سأل:

- هل الذي مات شخص مهم؟

هززت رأسي بالنفي:

- لا..

- إذن لقد خدعنا كلّنا ذلك الوغد..

سألت في استنكار:

- من الذي خدعنا؟!

- مصطفى.. لقد تلاعب بنا جميعًا.

- هل يمكنك وصفه؟

استرسل الشيخ رسلان:

- بالتأكيد يمكنني ذلك.. لكنّ الصورة التي أتذكّرها له عندما كنّا في أسيوط سنة ١٩٨١.. يعني منذ ثلاثين سنة.. وأنت تعرف؛ لا أحد يظلّ على حاله..

تمتمت شاردًا:

- هل ستُضيف لي جديدًا؟

- كلّ ما أعرفه قلته لسيادتك..

سألته:

- هل تعرف شيئًا عن محاولة اغتيال نائب الرئيس؟

- ليس أكثر مما تعرفه سيادتك..

ظللت صامتًا للحظات ثم قلت:

- ما آخر شيء عرفته عن مصطفى؟

- كلّ ما أعرفه عنه أنه بعد حادثة أسيوط كفر بكل مبادئنا وأفكارنا وكره حياتنا ونظامنا.. وانشقّ عنّا واعتزل الجميع..

- لماذا؟

سألت في استنكار:

- من الذي خدعنا؟!

- مصطفى.. لقد تلاعب بنا جميعًا.

- هل يمكنك وصفه؟

استرسل الشيخ رسلان:

- بالتأكيد يمكنني ذلك.. لكنّ الصورة التي أتذكّرها له عندما كنّا في أسيوط سنة ١٩٨١.. يعني منذ ثلاثين سنة.. وأنت تعرف؛ لا أحد يظلّ على حاله..

تمتمت شاردًا:

- هل ستُضيف لي جديدًا؟

- كلّ ما أعرفه قلته لسيادتك..

سألته:

- هل تعرف شيئًا عن محاولة اغتيال نائب الرئيس؟

- ليس أكثر مما تعرفه سيادتك..

ظللت صامتًا للحظات ثم قلت:

- ما آخر شيء عرفته عن مصطفى؟

- كلّ ما أعرفه عنه أنه بعد حادثة أسيوط كفر بكل مبادئنا وأفكارنا وكره حياتنا ونظامنا.. وانشقّ عنّا واعتزل الجميع..

- لماذا؟

- الله أعلم.. من المحتمل أن يكون هناك شخص ما أقنعه بأفكار أخرى غير أفكارنا..

- شخص مثل من؟

- لا أعرف.

- وبعد ذلك، ما الذي حدث؟ أكمل..

- لقد قلت لك من قبل إنه قنّاص مأجور.. وتقريبًا أنت لم تُعر كلمة مأجور أي اهتمام..

- ماذا تقصد؟!

صمت الشيخ لحظة قبل أن يُنهي كلامه:

- أقصد أن مصطفى كان يخدم كلّ من يدفع له.. بمعنى أدق؛ ليس شرطًا أن تكون العملية الأخيرة تمّ تنفيذها لصالح الجماعات الإسلامية.. هناك أشخاص كثيرون معهم ثمن مصطفى..

وارتسمت علامة الخيبة على وجهي.

لم أنجح في أن أنتزع منه أي إفادة قيّمة عن ذلك المجهول، وتركني أواصل رسم هواجسي وخوفي كما أريد.

ولا أنكر أنني في لحظة ما توهّمت أن الشيخ رسلان هو من يفعل كلّ ذلك.. هو من يكتب وهو من يُسجّل الفيديوهات بنفسه، ولكن بعد التحريات والرجوع للخبراء تأكّدت أنه ليس هو، ومن مراقبتنا الدائمة له أستطيع أن أقول بأنه لايزال على العهد معنا.

* * *

(٧)

بعد هروبي من المستشفى عدت إلى حيث كنت عندما وصلت أسيوط.. رجعت إلى الجبل..

رحب الجميع بي وأوصلني أحدهم إلى غرفة لكي أستريح.. أغلق الباب خلفه وتركني وحيدًا في عتمة المكان ودجنة قلبي.. حاولت أن أغفو قليلاً.. فردت جسدي وأغمضت عينيّ.. لكن شوّش تفكيري صوت خبط متتال على الجدار المجاور لي.. أنصتّ له جيدًا.. اعتقدت أنه مجرد تخيّلات.. لكنّ الخبط توالى، فقمت واقتربت من الجدار، وسمعت صوتًا واهنًا قادمًا من خلف الحائط يقول:

- هل أحد هنا؟!

فأجبت بقلق:

- من أنت؟!

- أنا.. أنا...

انقطع الصوت فجأة ودوى سقوط شيء ثقيل دفعة واحدة مرتطمًا بالأرض.

دفعني الفضول للخروج من غرفتي والذهاب إلى مصدر الصوت..

كان رجلاً ملقى به على الأرض فاقد الوعي، عندما تأمّلته جيّدًا وجدته هو الشيخ عبد الله.. حاولت إفاقته فلم يستجب لي غير بعد بضع دقائق.. فتح عينيه وبدأ يستعيد وعيه تدريجيًا.

- أنت بخير؟!

حدّق بي وهو يهزّ رأسه.. وسألته:

- لماذا أنت هنا؟!

قال بصوت واهن:

- إنهم يظنون إني وشيت بهم.. وأنني السبب في خسارتهم المعركة مع الشرطة.

سألته مرة ثانية بصوت منخفض يتناسب مع الحذر الذي اكتنف المكان:

- وهل أنت حقًا فعلت ذلك؟!

- أقسم بالله لم أبرح بيتي منذ آخر لقاء جمعني بهم.

صمتُّ قليلاً مفكّرًا في الأمر، ثم قلت:

- إذن سأساعدك وأشرح لهم ما حدث.

- لن يُصدّقك أحد.. لقد ملأت القسوة قلوبهم.

- سأحاول إفهامهم..

قاطعني:

- لا جدوى من ذلك.

- وكيف لي أن أساعدك؟!

أجاب بابتسامة:

- أن تسقيني ماءً.

فجأة سمعت صوت جلبة وتجمهر ناس في الخارج.

كانت أعدادًا بسيطة متجمهرة تُحيط بالمكان، يزيد عددها بين لحظة وأخرى..

- هيا اختبئ فورًا، لا يجب أن يشاهدك أحد هنا.

- لا، سأبقى معك لأشرح لهم الأمر.. الكلّ يثق بي وسيصدقونني.

- أرجوك نفّذ ما قلتُ.

ثم سمعنا صوت إطلاق رصاص.. وكأنها كانت إشارة على ما يبدو، فتقدّموا جميعًا نحو الباب يدفعونه حتى فُتح.

كان الشيخ عبد الله يقف في منتصف المكان جامدًا مغمض العينين كأنه مثقل السكر في مواجهتهم.. بينما أنا أراقب ما يحدث منزويًا في ركن الغرفة دون أن يلاحظني أحد..

هجم أحدهم على الشيخ عبد الله ولكمه لكمة طرحته أرضًا.

هبّ عبد الله واقفًا.. لكمه رجل آخر لكمة شديدة فخرّ على الأرض وارتطمت رأسه بحجر.. ليفقد الحياة في حينها..

كنت أنظر نحوه في هلع..

انهال عليه البعض ركلاً بالأحذية.. كان يتلقى الضربات كدمية فاقدة للروح.. لا يستجيب لأي ألم، لكنّي سمعته يهمس:

- سينصرني الله.

وكانت آخر كلمة ندت من شفتيه:

- يا رب..

جرّته الأيادي من قدمه نحو الخارج.

كنت أبكي بحرقة وأنا أُشاهد تلك البشاعة عاجزًا عن فعل شيء.

ظلّوا يجرّون عبد الله من قدميه حتى أصبح تحت شجرة بلا أغصان تُشبه المقصلة .. ربطوا رقبته بحبل وعلّقوه فيها.. ثم تقدّم أحدهم وأشعل النار في الجثّة المعلّقة، والجميع على التوالي يُلقون بالحطب في النار الذي اشتعل وتوهّج..

* * *

عندما ظهرت تباشير الصباح كنت قد غادرت الجبل دون أن يشعر بي أحد بعدما اكتشفت أنني كنت أجري وراء سراب.. كنت ساذجًا إلى الحدّ الذي أؤمن فيه أن دولة الخلافة على بعد خطوات، فالمرء لا يعرف قدر سذاجته وغبائه إلا بعد فوات الأوان.

استقللت القطار من أسيوط إلى الإسكندرية في رحلة طويلة متعبة.

* * *

من أول وهلة وقعت في غرام تلك المدينة الساحلية الدافئة.. طفت سريعًا بالمدينة وأسواقها حتى قادتني قدماي إلى مقهى صغير مطل على الترام، وطلبت كوب شاي..

انهال عليه البعض ركلاً بالأحذية.. كان يتلقىٰ الضربات كدمية فاقدة للروح.. لا يستجيب لأي ألم، لكنّي سمعته يهمس:

- سينصرني الله.

وكانت آخر كلمة ندت من شفتيه:

- يا رب..

جرّته الأيادي من قدمه نحو الخارج.

كنت أبكي بحرقة وأنا أُشاهد تلك البشاعة عاجزًا عن فعل شيء.

ظلّوا يجرّون عبد الله من قدميه حتىٰ أصبح تحت شجرة بلا أغصان تُشبه المقصلة .. ربطوا رقبته بحبل وعلّقوه فيها.. ثم تقدّم أحدهم وأشعل النار في الجثّة المعلّقة، والجميع علىٰ التوالي يُلقون بالحطب في النار الذي اشتعل وتوهّج..

* * *

عندما ظهرت تباشير الصباح كنت قد غادرت الجبل دون أن يشعر بي أحد بعدما اكتشفت أنني كنت أجري وراء سراب.. كنت ساذجًا إلىٰ الحدّ الذي أؤمن فيه أن دولة الخلافة علىٰ بعد خطوات، فالمرء لا يعرف قدر سذاجته وغبائه إلا بعد فوات الأوان.

استقللت القطار من أسيوط إلىٰ الإسكندرية في رحلة طويلة متعبة.

* * *

من أول وهلة وقعت في غرام تلك المدينة الساحلية الدافئة.. طفت سريعًا بالمدينة وأسواقها حتىٰ قادتني قدماي إلىٰ مقهىٰ صغير مطل علىٰ الترام، وطلبت كوب شاي..

كنت تائهًا لا أعرف ما الخطوة التالية، وليس عندي مخبأ ولا أحد ألجأ إليه، ومثلي لا يصح له الاستمرار هكذا..

غلبني النعاس فغفوت قليلاً، واستيقظت علىٰ يد النادل يطالبني بالحساب.

قمت متثاقلاً واتجهت نحو المسجد، صلّيت العشاء ثم انزويت في أحد الأركان ونمت.

لكزتني يد.

- أنت يا بني.. أنت يا بني..

فتحت عيني علىٰ وجه رجل ملتح غزير اللحية أبيضها، عليه سيماء علماء الدين..

- آسف يا شيخ، لم أقصد أن أسبّب لكم أي إزعاج..

- ماذا بك يا ولدي؟! ولماذا لا تذهب إلىٰ بيتك؟!

- أنا عابر سبيل وليس لي مأوىٰ في هذه البلد.

- بيت الله مأوىٰ من لا مأوىٰ له.

ثم حدّق بي قليلاً كأنّه «يُشبّه عليّ».

- وجهك ليس غريبًا.. هل تقابلنا من قبل؟

هززت رأسي نافيًا.

- لا أعتقد، فهذه أول مرة آتي فيها إلىٰ الإسكندرية.

أومأ الشيخ بالإيجاب قائلاً:

- سأتركك لتنام وسوف أوقظك في صلاة الفجر.

كنت تائهًا لا أعرف ما الخطوة التالية، وليس عندي مخبأ ولا أحد ألجأ إليه، ومثلي لا يصح له الاستمرار هكذا..

غلبني النعاس فغفوت قليلاً، واستيقظت على يد النادل يطالبني بالحساب.

قمت متثاقلاً واتجهت نحو المسجد، صلّيت العشاء ثم انزويت في أحد الأركان ونمت.

لكزتني يد.

- أنت يا بني.. أنت يا بني..

فتحت عيني على وجه رجل ملتح غزير اللحية أبيضها، عليه سيماء علماء الدين..

- آسف يا شيخ، لم أقصد أن أسبّب لكم أي إزعاج..
- ماذا بك يا ولدي؟! ولماذا لا تذهب إلى بيتك؟!
- أنا عابر سبيل وليس لي مأوى في هذه البلد.
- بيت الله مأوى من لا مأوى له.

ثم حدّق بي قليلاً كأنّه «يُشبّه عليّ».

- وجهك ليس غريبًا.. هل تقابلنا من قبل؟

هززت رأسي نافيًا.

- لا أعتقد، فهذه أول مرة آتي فيها إلى الإسكندرية.

أومأ الشيخ بالإيجاب قائلاً:

- سأتركك لتنام وسوف أوقظك في صلاة الفجر.

- شكرًا لك يا شيخ.. شكرًا.

تركني بعدما قدّم لي غطاءً وشعر أنني سقطت تمامًا في النوم.

لكزتني هذه المرة يد بقوة. استيقظت.. صُدمت عيني برجل فحل بزيه العسكري، قال لي مبتسمًا:

- أهلا يا أبو يعقوب.. كما أقول دائمًا؛ لا أحد يهرب من قبضتنا أبدًا..(*)

(*) تدوينة قصيرة انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ ٢٠ مايو ٢٠١١.

الفصل الرابع

رحلة الشكّ

(١)

الفأر لا يقع في المصيدة

مجهول يدّعي قتل السادات واشتراكه في محاولة اغتيال نائب الرئيس..
والأجهزة الأمنية عاجزة عن الوصول إليه، أو على الأقل تحديد هويّته.(*)

(*) خبر نُشر في جريدة الأهرام، كتبته الصحفية رشا درويش بتاريخ ٢١ مايو ٢٠١١.

(٢)

علاقتي متوتّرة دائمًا مع كل رؤسائي في العمل منذ أبديت اعتراضي على تعذيب إحدى الفتيات وتمزيق ملابسها كي يحصلوا منها على اعتراف.. أسلوب رخيص.. لا أحبّه.. عمومًا لا أحبّ فكرة التعذيب وإن كنت لست ضدّها..

اعترضت وتمّ لومي على ذلك، وحُوّلت إلى التحقيق بسبب وشاية من زميل عمل.. فاعترضت هذه المرة بشكل غير لائق وشتمتهم وسببت لهم الدين.. تمّ فصلي.. لم أسكت على حقّي.. رفعت قضية ضدّهم وعدت إلى عملي، ومنذ عودتي والجميع يتجنبني..

تمّ تهميش دوري وإبعادي عن القضايا الكبرى، رأوا أن الإنترنت مناسب جدًا لي، لكنّ حظّهم السيّء جعل أهمّ قضية في الموسم تحت يدي.. هذا يضايقهم كثيرًا، لذلك يجب أن أفعل شيئًا جيّدًا حتى أزيد غيظهم أكثر.. لكنّ الأمر حقًا صعب، فأنا أشعر أني أبحث عن خاتم وقع في قاع البحر، وأنا لا أجيد العوم..

* * *

هاتفني وائل قائلاً:

- اتّصل بك الباشا منذ خمس دقائق ولم يجدك في مكتبك.

- لقد وصلت حالاً.. هل يريد شيئًا؟!

- يريدك حالاً في مكتبه..

- خيرًا؟

- لا أعرف.. لكنه كان غاضبًا ونبرة صوته تدلّ على أن هناك مصيبة حدثت..

وضعت السماعة وعقلي لا يريد أن يُفكّر فيما يريده مني، كأنّ الأمر يخص شخصًا آخر..

طلبت فنجان قهوة تناولتها مع سيجارة، وعندما انتهيت ذهبت إليه.

طرقت الباب ودخلت.. كان جالسًا خلف مكتبه يتحدّث في هاتفه الجوّال.. عندما رآني أغلق الخطّ سريعًا ثم قال مرحّبًا:

- أهلاً مجدي.. ما أخبارك؟

اندهشت من طريقة تر-حابه، فتمتمت:

- تمام، الحمد لله يا باشا..

أشار لي بيده بأن أجلس.

- تفضّل.. تفضّل..

جلست وقد توجّست من طريقته في تعامله معي.. يبدو فعلاً أن هناك شيئًا خطأ.. لم يسبق من قبل أن عاملني هكذا..

فتح درج مكتبه وأخرج منه جريدة قدّمها لي، ثم قال بابتسامة ساخرة:

- تفضّل.. اقرأ ما كتبته حبيبة القلب!

جرت عيني سريعًا على المكتوب.. كان ملفًا كاملاً عن ذلك المجهول الذي نلهث وراءه.. وضعت الجريدة على سطح المكتب وقلت مبرّرًا:

- والله العظيم لم أعطها أي معلومات!

قاطعني:

- أرجوك لا تستخدم قسم الله في حوارنا!

فأوضحت:

- لا تنسَ بأنها صحفية كبيرة ولها مصادرها الخاصة من قبل أن تعرفني.

ردّ باستنكار:

- وهل يجب عليّ تصديق هذا الهراء؟!

- لأنها الحقيقة!

قال بازدراء:

- قلت لك ونبهتك أكثر من مرة، هذه القصة لا مجال للنشر فيها تحت أي ظرف، وتلك الصحفية إذا كانت تعتقد أنك تستطيع حمايتها فهي واهمة!

لم أجد شيئًا أقوله.. أخرج سيجارة من علبته وأشعلها ونفث منها، ثم تابع:

- خلاصة الكلام يجب أن تبتعد عنها إلى الأبد.. أو تبعد عنّا إلى الأبد.. والاختيار لك.

- سأحدّثها في الأمر

- بل يجب أن تُقرر وتأمرها..

هززت رأسي بالإيجاب.

- والآن دعنا نتحدث في المهم.

جذب نفسًا ونفثه، وقال بنبرة هادئة:

- النقطة المهمة التي أرسلت إليك من أجلها هي أنك منذ فترة كبيرة وأنت تعمل بشكل متواصل، وبصراحة تؤدي عملك على أكمل وجه، ونحن نُقدّر ذلك جدًا.. وقررنا أنك في حاجة إلى الراحة من ضغوطات العمل.. تحتاج إلى تغيير «الجوّ».. مذ فترة طويلة لم تحصل على أجازة.. ما رأيك في رحلة إلى شرم الشيخ للاستجمام؟ حجزنا لك جناحًا في فندق خمسة نجوم.. وهذا لا يحدث إلا مع الضبّاط الأكفّاء أمثالك..

كانت الكلمات ثقيلة على لساني.. ظللت ثوانٍ أحاول قذفها خارج فمي، لكنّها خرجت بشكل ساخر لم أكن أرغب به:

- لو تريدون إبعادي عن قضية شوكت فليس هناك داعٍ إلى كل هذا التبذير.. الأمر في غاية البساطة..

حدّق فيّ بنظرة يتطاير منها الشرر، وقال:

- وهل لو نريد إبعادك عن القضيّة سننتظر رأيك؟! واضح أن تفكيرك ذهب بعيدًا.. أنت في أجازة من الغد، وكلّ ملفات القضايا التي لديك يجب تسليمها اليوم..

قلت مُحتجًّا:

- أنا أرفض تلك الأجازة.. لست بحاجة إلى الراحة..

قال بحسم:

- لقد وقّعت على طلبك للأجازة وانتهى الأمر.

- وقّعت على طلبي؟!

- منذ خمس دقائق.

تساءلت في ريبة:

- وقاتل شوكت؟! وثأره؟! لمن سأتركه؟!

- هذه القضية ستُغلق.. نظرًا لعدم كفاية الأدلّة.

- ماذا؟!

- كما سمعت!

- لكن...

قاطعني قائلاً:

- اسمع الكلام ونفّذ..

- هناك قاتل حرّ طليق.. قتل صديقي.. وتريد مني أن أصمت وأذهب إلى التنزّه والاستجمام؟!

تفحّصني ذاهلاً ثم انفجر ضاحكًا، وقال:

- مجدي، حبيبي.. العب هذا الدور مع أحد غيري.. أنت تربية يدي..

- أنا لست ممثلاً..

- هذه حقيقة.. أنت لست ممثلاً لأن مثل هذه الأدوار لا تُناسبك..

أنتَ لا شيء من الأساس يا عزيزي مجدي..

وواصل ضحكه، ثم قال بجدّية:

- الجلوس في مقاعد المتفرجين هو الدور الوحيد المناسب لك..

صمتُّ برهة أبتلع فيها سخريته وحديثه الماسخ و أُفكّر في الأمر، ثم قلت:

- عندي سؤال أخير قبل أن أُطيع أوامرك..

- تفضّل!

- ألمح لي الشيخ رسلان أن هذا القنّاص يريد الجميع دفن قضيّته..

سأل في قلق:

- من تقصد بالجميع؟!

- أقصد الجماعات المتطرفة والنظام..

قال منزعجًا:

- أنت تُفكّر في منطقة خطأ تمامًا.. إيّاك أن تستمر في هذا الطريق.. نتائجه لن تُعجبك على الإطلاق..

جذب نفسًا آخر من سيجارته وتابع:

- عليك أن تتحلّى بالصمت.. إنه لأمثالك فضيلة.

- لن أفعل ذلك.. يجب أن أتكلّم!

قال مهدّدًا:

- إذا أردت البقاء حيًّا فالزم الصمت!

هززت رأسي.. وها أنا قد تأكدت من شكوكي ومخاوفي.. أيّ لعبة قذرة يمارسها هؤلاء الأوغاد.. ثم قلت لأُنهي هذه المقابلة:

- أنا الآن موافق علي الأجازة.. أين التذاكر؟!

* * *

(٣)

لكزتني هذه المرة يد بقوة.. صُدمت عيني برجل فحل بزيّه العسكري، قال مبتسمًا:

- أهلاً يا أبو يعقوب.. كما أقول دائما لا أحد يهرب من قبضتنا أبدًا!

لم أنبس بحرف، وتولاني خوف وقلق.

وقال:

- هيا بنا يا أبو يعقوب.

- إلى أين؟

- إلى المكان الذي يليق بسجين هارب من العدالة.. أراد أن يُدمّر البلد ويُزعزع استقرارها ويضعها على حافة الهاوية..

لم أنبس. وضع يدي في الكلبشات وقادني إلى الخارج.

لقد وشى بي الشيخ للأسف وقبض المكافأة..

أعادوني إلى القاهرة، وتمّ تسليمي إلى مباحث أمن الدولة.. حقّقوا معي

لعدة ساعات متواصلة دون تعذيب أو سباب أو شتائم على غير المعتاد.

قال لي الضابط:

- أسمعني جيدًا يا أبو يعقوب.. أنت الآن سجين هارب، وأنا أمام اختيارين؛ إما أخذ القرار الصواب بأن أُسلّمك إلى النيابة ومنها إلى المحكمة ثم السجن؛ لتقضي فترة لن تقلّ عن خمس وعشرين سنة إذا كان حظّك جيّدًا.. لكن لا أُخفي عليك سرًّا.. الإعدام في انتظارك، لا مفرّ منه أبدًا..

ثم صمت قليلاً كأنّه يُفكّر في شيء ما، ثم تابع:

- أو أخذ القرار الخطأ وأدع لك الفرصة لتتراجع وتندم وتتوب عن كل ما فعلته، شريطة أن تحكي لي كلّ شيء وتكون رجلنا الذي نعتمد عليه وسط هذا التنظيم..
- لكنّي تركت التنظيم ومن الصعب العودة إليه.
- هذه ليست مشكلة على الإطلاق.. العودة دائمًا تكون سهلة، خاصة أنك تركتهم بشكل غامض يسهل تفسيره فيما بعد.. عمومًا لا تشغل بالك بتلك الأمور البسيطة، فكّر فقط في الأمور المصيرية.

أخبرته بأن يتركني ربع ساعة لأُفكّر، وبعد مرورها قلت له وأنا أدرك أنني أختار الطريق الصحيح:

- موافق ولكن بشروط..
- مع أنه ليس من المفترض أن تُملي عليّ شروطًا، لكن أُحبّ أن أسمعها أولاً قبل أن أُقرر الاستجابة لها أو لا.
- الأمان وعدم المساس أو الزجّ بي في أي قضية تورطت فيها واعتباري

شخصًا ليس له أي نشاط غير مشروع.. اعتباري مواطنًا مسالمًا عاديًا يمشي بجوار الحائط..

- وهذا ما نريده بالضبط.

نظرت إليه مندهشًا. فأوضح:

- نحن نريدك أن تكون عينًا لنا لا أكثر.
- إذن أنا تحت أمرك وأمر الوطن في أيّ شيء..
- أولاً احكِ لي كل ما تعرفه عن هذا التنظيم.. ولكن قبل أيّ شيء احكِ لي حكايتك..

وقصصت عليه كلّ ما حدث لي، بداية من العرض الذي عرضه عليّ عبد الحميد وحادث المنصة، مرورًا بهروبي إلى الجبل ومشاركتي في محاولة الانقلاب على نظام الحكم، ثم هروبي مرة أخرى من المستشفى والعودة إلى التنظيم ثم الهرب من الجبل ووصولي إلى الإسكندرية..

كان يسمع لي وهو فاغر فمه بدهشة غير مصدّق لأي شيء.

- إذن أنتَ شاركت في اغتيال السادات، ولك بديل نسخة طبق الأصل منك، مقبوض عليه الآن ويُحاكم؟!
- بالضبط.. وسيُشنق بالنيابة عنّي..
- صعب أن أُصدّق ذلك!
- لكن يجب أن تُصدّق.
- الأمر أصبح أكبر من كلّ ما خططت..

وتركني في الغرفة وحيدًا، غاب ساعتين وعاد. بادرني بسؤال:

- قلت لي بأنك تُجيد التصويب؟!
- أصغر الأهداف، ومن مسافات بعيدة، أستطيع اصطيادها.
- أين تدرّبت؟
- عندما كنت في الجيش.
- أريد أن أشاهد بنفسي.
- متى؟
- الآن..

وأخذني إلى الصحراء وبصحبتنا أحد السجناء. أمسك بالقلم ورسم دائرة صغيرة على جبهة السجين، وقال له:

- اذهب بعيدًا ثم قف مثل الألف..

واقترحت عليه:

- من الممكن أن أُصوّب على أي شيء.. زجاجة مثلاً أو تفّاحة.
- لا، ستُصوّب على رأس هذا الحقير، وإلا سأُصوّب أنا على رأسك إذا لم تخترق رصاصتك الدائرة.

قال جملته الأخيرة وهو يُخرج مسدّسه ويُشهره نحوي..

لم يكن أمامي أي خيار، فقلت في استسلام:

- تحت أمرك يا باشا.
- تُعجبني!

أعطاني بندقية دراغونوف كما طلبت منه سابقًا، وقال لي:

- صوّب على الدائرة التي رسمتها.

أحكمت مسك البندقية وركّزت في التصويب. انطلقت الرصاصة كما حدّدتها وسقط السجين في الحال على الأرض جثة هامدة.

هرع الضابط نحو الهدف وانكبّ عليه يتفحّصه، ثم رفع رأسه مبتسمًا وهو يُصفّق لي.

- برافو.. برافو!

ثم عاد وسلّم عليّ بترحاب كبير.. وسألته:

- ما رأيك؟
- لقد أصبته في مركز الدائرة.. أنت مدهش!
- هل صدّقتني؟!
- بالتأكيد، لقد رأيت بعيني.. سنحتاج لك الآن بشكل مختلف.
- كيف؟!
- ستقوم بأعمال مشابهة لتلك التي نفّذتها توًّا.

قلت بلا تردد:

- وأنا في خدمتك وخدمة الوطن.
- هل تحب الوطن حقًا؟!
- ....

ووفّر لي منزلاً مجهّزًا بكل شيء، وقال لي:

- عندما أحتاجك ستجد هذا الهاتف يرنّ.(*)

(*) تدوينة قصيرة انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ ٢٢ مايو ٢٠١١.

(٤)

كتبت رسالة إلى رشا تركتها ظاهرة على طاولة السفرة، كان فحواها بأن تتركني في حالي وترحل بعيدًا عنّي.. وأني حذّرتها أكثر من مرة بألا تستغلّ علاقتنا في عملها، لكنّها لا تكترث إطلاقًا بذلك.

أحكمت غلق حقائبي وقبل رحيلي كانت قد فتحت باب الشقّة ودخلت. أبعدت نظري عنها، ولمحت هي الرسالة التي كنت قد كتبتها، فأخذتها وقرأتها، وبعدها أولتني ظهرّها، وغطّت سحابة من الدموع عينيها، فأدركت مدى ما سببته لها من ألم.

لملمت حاجتها وملابسها وكتبها من أرجاء الشقة وهي تتحاشى النظر إليّ.. حاولت للمرة الأخيرة الحديث معها، ولكنّني لم أجد ما أقوله سوى ابتسامة باهتة وصوت متحشرج:

- هل انتهيتِ؟

جاءني صوتها مختنقًا باكيًا:

- لماذا دائمًا تتخلّى عنّي بسهولة؟

قلت بهدوء وأنا أُداري ضيقي:

- الأمر ليس كما تعتقدين.. أنا أعيش في دوّامة من التخبّط والحيرة.
- وهل أنا السبب فيها؟
- ليس بالضبط.. لكنّ الأمر معقد.
- هل هذه هي النهاية؟

تجاهلت سؤالها، وكرّرت سؤالي السابق الذي لم تُجب عنه:

- هل انتهيتِ؟
- نعم.. انتهيت.

وبدت وكأنّها لا تريد أن تنصرف.. لكنّها في النهاية تركتني ورحلت.

والآن أصبحت وحيدًا..

لم أفهم جراحها الصامتة.. رشا كانت تُوحي لي دائمًا بالرغبة بالهروب والخوف..

أغلقت عينيّ. أحسست أنني أتخلص من ثقل كبير يتساقط منّي تدريجيًا فيمنحني راحة لحظية ويعقبه صخب عميق..

أصبحت وحيدًا.. لا أحد معي.. حياتي امتلأت بأشخاص عديدين مفقودين.. أمي ولبنى منذ الأزل، وأبي ورشا من الآن فصاعدًا..

* * *

(٥)

كان أول نهار بدونها..

ذهبت إلى شرم الشيخ، «جوهرة سيناء» كما يطلقون عليها.. منذ توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل تحوّلت تلك القرية القاحلة إلى مدينة تجتذب المستثمرين وتستقطب آلاف السيّاح هواة الغوص والمناظر الخلابة.. أما أنا فقد كنت أجاهد نفسي في الابتعاد قدر المستطاع عن التفكير في كل شيء.. كنت أبحث عن الراحة والسكينة وطمأنينة القلب.. لكن بين الحين والآخر كان يطرأ على ذهني شعور غاضب تجاه رئيسي في العمل.. كم وددت أن أصفعه وأبصق في وجهه، غير أن هذا الشعور لم يكن قويًا بحيث يُثير حنقي..

وضع أحدهم يده على كتفي قائلاً:

- كيف حالك يا باشا؟

التفتُّ خلفي.. كان وائل، فارتسمت على وجهي علامات الدهشة ولم أردّ عليه..

- ما رأيك في هذه المفاجأة؟

- لماذا أنت هنا؟!

- أعطوني أجازة أنا أيضًا..

- حقًا!!

- كنت أقول لهم أريد الحصول على أجازة.. وقبل أن أُقدّم مبرراتي قالوا لي مع السلامة، «في ستين داهية»!

قالها وضحك، فقلت له بلهجة متصنّعة:

- أهلاً بك.

وساد الصمت بينا قليلاً، قطعته قائلاً:

- هل بحثت في الأرشيف كما أخبرتك عن أي شخص يُدعى مصطفى له ملف لدينا في الثمانينات.

- بحثت جيدًا ولم أجد أيّ شيء.. على ما يبدو أنه إن كان كلامه صحيحًا؛ لم يتمّ تسجيل التحقيق أو أيّ شيء من الممكن أن يُثبت وجوده لدينا.

وهبط الصمت علينا مرة أخرى، قطعه وائل هذه المرة:

- بالتأكيد حضرتك تستغرب وجودي.

غمغمت:

- لا.. عادي، مرحبًا بك في أي وقت.

- عمومًا أنا هنا في موضوع مهم يخص القضيّة التي أجبروك على تركها.

- خيرًا؟

- شوكت رحمه الله كان قد طلب مقابلة وزير الخارجية بخصوص اغتيال نائب الرئيس.

- وهل هناك جديد؟

- البارحة اتّصل سكرتير الوزير وحدّد لك موعدًا معه.. ولحسن الحظ فالوزير موجود هنا في شرم الشيخ.. انتهزت هذه الفرصة وطلبت منهم تعديل الموعد لتكون المقابلة هنا، وقد وافقوا على ذلك شرط أن تكون اليوم..

ونظر في ساعته ثم أكمل:

- عقب ساعتين ونصف من الآن..

* * *

(٦)

- لماذا تنخر في الموضوع؟! إلى أي شيء تريد أن تصل؟!

قالها بمجرد دخولي عليه. كان يصبّ كأسين من العصير، فتمتمت:

- أريد أن أصل إلى الحقيقة.

- ليست كلّ حقيقة تحمل لنا الراحة.. أحيانًا الحقيقة تكون جحيمًا.. وتظلّ كلّ أمنيّتك أن تهرب منها..

- إذن أعرفها وأُريح رأسي من التفكير والشكّ..

أشار لي بالجلوس وقدّم لي كأسًا تناولته منه، ثم قال:

- الإنسان لا يعرف طعم الراحة طوال عمره .. إنه يقضي حياته في التفكير والشكّ.

وهتف:

- أنا أشكّ إذن أنا حيّ..

- إذن أنا أسير في الطريق الصحيح.

- بالعكس.. إنه الطريق الخطأ!

- وما نصيحتك لي؟

- نفس النصيحة التي أعطتها لك قياداتك..

- تقصد...

فقال مقاطعًا وموضّحًا:

- الصمت.. الصمت أفضل شيء يفعله إنسان يشكّ في كلّ ما حوله.. افرض على نفسك قوانين الصمت.. اعرف المعلومة وأنت صامت.. اسمع وأنت صامت.. شاهد وأنتِ صامت.. اقرأ وأنت صامت.. كن مثل الصنّدرة.. ضع بها كل الكراكيب التي لا حاجه لك بها إلى أن يأتي الوقت المناسب لتخرجها..

نظرت نحوه دون أن أنبس، فتابع مُحذّرًا:

- لكن تُخرجها بصمت.. إيّاك أن تقول شيئًا في العلن.. استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.. سيأتي عليك وقت ستكون أمام اختيار من اثنين.. إما أن تفضحهم أو تبتزّهم، ولو لجأت لأي من الخيارين غالبًا سيتمّ قتلك.. لكنّ هناك خيارًا رائعًا يجب أن يكون سلاحك المفضل..

- ما هو؟!

- الصمت..

- لماذا يريد الجميع منّي الصمت؟!

- لأنهم خائفون عليك.

- سؤال أخير.. لماذا طلبتَ مقابلتي؟!

- أنا لا أطلب مقابلة أحد.. أنت الذي طلبت وليس أنا.. أيًّا كان.. في النهاية أنا وافقت على مقابلتك..

* * *

أعطاني ملف به عدّة أوراق.. قال لي:

- إنه جزء من كتاب أنوي نشره قريبًا.. هذا الفصل هو الذي تبحث عنه.. به تفاصيل ستُساعدك في عملك، كتبت فيه ما يمكن أن يُقال.. بالتأكيد هناك أشياء أخرى لكنّها أكبر من أن أحكيها في كتاب.. الأمر أكبر منّا جميعًا..

للحظات فكّرت في عدم قراءة هذه الأوراق، كدت أحرقها، لكنّ شيئًا ما داخلي قال لي اقرأها، لن تخسر شيئًا، ثم أحرقها.. ثم عدت وقلت لنفسي..

- إنه فصل من كتاب لا أكثر سينشره في وقت لاحق، بالتأكيد ليس به أيّ معلومة تُريدها..

كنت مرهقًا من التفكير فارتميت على السرير بحثًا عن شيء من الراحة..

رنّ هاتف الغرفة.. كان وائل.. أخبرته أني مرهق ولن أستطيع الحديث الآن، وأغلقت الخط في وجهه ولازمت حجرتي مفكّرًا، ولم أقم بأي نشاط آخر ليومين.. قبعت مفكرًا.

* * *

(٧)

ضد الاغتيال

ارتبطت مع نائب الرئيس بعلاقة إنسانية وصداقة حميمة منذ أكثر من عشرين عامًا.. وكان لديّ دراية واسعة بشخصية ذلك الرجل العظيم، وأعرف الكثير ممّا عاناه من الجميع، وكيف كان متسامحًا لدرجة كبيرة..

وخبر محاولة اغتيال نائب الرئيس في حكم السياسة ومنصبه الحسّاس خبر غير عادي على الإطلاق.. فالرجل طوال حياته كان مُستهدَفًا، وهناك عدد من محاولات الاغتيال، بعضها مجهول وبعضها معروف وتناولته الصحف على استحياء.

المحاولة الأولى:

كانت غامضة جدًا وكنت برفقته خلالها.. جرت في نوفمبر ٢٠٠٩، وقد نجونا من كارثة جويّة محققة وذلك أثناء توجّهنا إلى إثيوبيا، حيث أُصيبت

الطائرة التي كنّا نستقلها بخلل فني، بالإضافة إلى أن نافذة من نوافذ الطائرة تحطّمت تمامًا.. وهذا ليس طبيعيًا على الإطلاق مع طائرة خاصة يستقلّها رجل في مثل مكانته..

وفي النهاية فسّرتها على أنها محاولة اغتيال لم تنجح، وقلت له محذّرًا:

- أخشى أن ينجحوا في المرة القادمة..

قال باستهانة:

- لا تُهوّل من الأمر..

فقلت بغضب:

- يجب ألا تصمت على ما حدث..

فقال لي مُحاولاً إظهار أن الأمر بسيط وغير متعمّد:

- الأمر ليس سوى حادث عابر.. وارد حدوثه في أي وقت ومع أيّ أحد.

قلت منفعلاً:

- هذا الكلام ساذج وسخيف في آنٍ واحد..

وتركته ورحلت.

المحاولة الثانية:

هو بنفسه حكى لي عنها.. كنت في مكتبي عندما طرق عليّ الباب ودخل.. كان وجهه شاحبًا والتوتّر يعتصر تقاسيم وجهه.. قلت له:

- ما بكَ يا صديقي؟!

جلس على الكرسي أمامي قبل أن يجيب بصوت يقتله الحزن والأسى:

- تكرّر معي نفس ما حدث في المرة الأولى!

فسألت مستوضحا:

- ماذا تقصد؟! عن أي شيء تتحدّث؟!

ظلّ صامتًا وهو ينظر بعينيه في سقف الغرفة.

- أعصابي لا تحتمل كلّ هذا الصمت، تكلّم!

- عطل فني في الطائرة وتحطّم زجاج النافذة، كما حدث في المرة الأولى بالضبط

- متى حدث ذلك؟

- منذ ساعتين.

فقلت مؤنبًا:

- هل تأكّدت الآن من شكوكي؟

- لم أتخيّل أن الأمور من الممكن أن تسير على هذا النحو..

وسألته:

- هل تشكّ في أحد؟

هزّ رأسه نافيًا، فقلت:

- يجب أن تبحث جيدًا عن عدوّك.

فقال بابتسامة:

- أعدائي كثيرون جدًا.

قلت برقة:

- كن حذرًا يا صديقي، أنا أريدك دائمًا بجواري.

وعلى الرغم من أن الأمر يمكن أن يكون محض صدفة، إلا أن تكرار الحادث يجعلنا نتساءل: هل كانت أقدار سيّئة تطارده فقط؟ أم كان هناك من تسوقه الأقدار في طريقه ليقتله؟

المحاولة الثالثة:

كانت أكثرهم جرأة وتبجّحًا وكنت شاهدًا على أحداثها.. جرت وقائعها في يوم ٣٠ يناير ٢٠١١ بعد حلفه يمين تكليفه نائبًا للرئيس بساعات قليلة..

كنت في طريقي إلى اجتماع مجلس الوزراء عندما قامت سيّارة إسعاف بمهاجمة موكب نائب الرئيس أثناء سيرها باتجاه القصر الجمهوري، حيث قامت بفتح النيران عليه بشكل مكثّف، ممّا أدّى إلى مصرع أحد الحرّاس المرافقين والسائق..

وتفاصيل الحادث وملابساته كما حكاها لي نائب الرئيس كانت كالتالي:

بعدما فرغ من حلف اليمين طلب من الرئيس الذهاب إلى مكتبه ليجمع أوراقه، وأكدّ له أنه في أيّ لحظة يطلبه سيجده أمامه على الفور.. وبالفعل غادر إلى مكتبه وظلّ به حتى أتته مكالمة هاتفية من القصر، وكان فحواها أن الرئيس يريده على وجه السرعة.. وذكر لي أن الحرس الخاص أبلغ الرئاسة أنه سوف يأتي إلى المقابلة بالسيارة X5 حتى يتمّ فتح الطريق لها للدخول إلى ساحة القصر.. لكن عندما هبط من مكتبه ركب السيّارة المدرّعة بشكل عفويّ وركب حرسه الشخصي السيارة X5، ولم يُبلغ الحرس بهذا التغيير لأمن الرئاسة..

مضى الموكب المُكوّن من ثلاث سيّارات.. سيّارة X5 في المقدّمة ثم السيّارة المدرّعة، والتي يستقلها نائب الرئيس، ثم سيّارة Jeep خاصة بالحرس.. وفي الطريق وعندما وصل إلى مستشفى كوبري القبّة فوجئت السيّارات الثلاثة بإطلاق الرصاص عليها بشكل مكثّف، خاصة على السيارة X5، ولم يستغرق الأمر سوى عشر دقائق، وكانت حصيلة هذا الهجوم مقتل السائق وإصابة أحد الحرّاس وتصفيّة كلّ من شارك في محاولة الاغتيال، وللأسف لم يكن معهم أيّ أوراق تُثبت هويّتهم، ولم يتمّ التطرك لهذا الموضوع مرّة أخرى كأنّه لم يكن، وتمّ إغلاقه نهائيًا بأوامر عليا، حتى إن نائب الرئيس ظلّ صامتًا على حقّه، ولا يزال صامتًا.(*)

(*) فصل من كتاب لوزير الخارجية الأسبق بعنوان «شهادتي».

(٨)

القصة التي كتبها سيادة الوزير الأسبق لا جديد فيها.. أنتَ تُحلّل وتُخمّن على حسب أهوائك الشخصية.. أنا لا أهتمّ بشأن ابن الرئيس الذي تُلمّح له بين السطور.. أنا أُريد من أمسك البندقية وصوّبها نحو رأس نائب الرئيس.. ليس لي شأن بالعقل المدبّر.. أُريد الفاعل فقط..

هل تعتقد أيّها الوزير الأسبق أن كلماتك عن ابن الرئيس ستفرق معي؟! حتى لو كان هو الذي فعلها؛ هل يوجد أحد يقدر أن يُوجّه الاتّهام إليه؟! إذا كان صاحب الشأن الذي كانت ستنفجر دماغه لم يتّهم أحدًا ولم يُشر إلى الحادث من الأساس..

* * *

في المساء.. اتّصلت بوائل وحكيت له عمّا حدث وأطلعته على الأوراق التي أخذتها من الوزير الأسبق، فقال لي:

- لقد فعلنا كلّ ما في وسعنا من أجل الحقيقة.

- نستسلم؟!

- لا أقصد ذلك بالضبط.. ولكن ندع كلّ شيء للظروف، وبالتأكيد سيبتسم لنا الحظ لاحقًا.

- نحن رجال أمن ولسنا لصوص دجاج!

- لم أقصد ذلك.. لكنّ القضية معقّدة جدًا ولم يعد بوسعنا فعل أي شيء سوى انتظار قُبلة الحظّ.

- وإذا لم تأتِ هذه القُبلة ماذا سنفعل؟ هل سنجلس في منازلنا؟!

لاذ بالصّمت قبل أن يقول مغيّرًا مجرى الحوار:

- نحن في شرم وأنتَ لم تستمتع بعد بهذه المدينة الساحرة.. اترك كلّ الهموم جانبًا وهيّا بنا نروي عطشنا.

ذهبنا إلى ملهى ليلي.. وعلى الحلبة كنّا نرقص وندور حول ذاتنا على إيقاعات موسيقى الجاز..

نرقص لنذهب بعيدًا ونُحلّق في الفضاء..

نرقص لنرى العالم من زوايا مختلفة مُبهجة..

نرقص لننسى الهمّ والغمّ والنكد..

شربنا ورقصنا حتى ثملنا، ونسيتُ الهمّ، ونسيتُ الدنيا، وقلت لنفسي:

- كلّ ما أحتاجه الآن هو راحة البال.

* * *

(٩)

رنّ الهاتف في الصباح.. عرفتُ صوت المتّصل.. أستطيع تمييز صوته من بين ألف صوت:

- ستجد تحت عقب باب الشقّة ظرفًا فيه كلّ التفاصيل.. لا تنسَ أن تحرقه بعد الانتهاء من قراءته..

وأغلق الخط.

رنّ الهاتف مرّة أخرى:

- كن حذرًا ولا تُجازف بحياتك ولا بكشف هويّتك إذا سارت الأمور عكس ما نريد.

وصمت قليلاً ثم اكتفى بقول:

- أوصيك بالدقّة.

وأغلق الخط.

(*) تدوينة قصيرة انتشرت على مواقع التواصل الاجتماعي بتاريخ ٢٤ مايو ٢٠١١.

في اليوم التالي استيقظت قبل الفجر، أدّيت الصلاة وارتديت ملابسي وأخذت أمشاط الرصاص، ووضعت بندقيتي الدراغونوف في حقيبتي، وأغلقت الشقّة ونزلت.

استقللت سيّارة ملاكي بيضاء كانوا قد أخبروني بأنها تنتظرني لتنقلني إلى المكان المراد.

كان المكان فيلا لرجل أعمال مشهور، وكان الهدف تصفيته.

اختبأت بين أشجار الحديقة وأخذت أتفقد بندقيتي للمرة الأخيرة، تأكّدت من جاهزيتها، ورحت أُراقب واستعدّ بانتظار ساعة الصفر التي حدّدوها لي.

كنت أُراقب وأُخطط بعناية طول المسافة التي تبعدني عن الهدف، وأحاول حساب سرعة الرياح وتخمين الأحداث المفاجئة التي من الممكن حدوثها..

ومع إشارة عقارب ساعة يدي إلى السادسة صباحًا ظهر رجل خمسيني مرتديًا ملابس رياضية ويمارس رياضة الجري، محاطًا بحارسين ضخمي الجثة في خصر كل منهما سلاح متدلٍ من حزاميهما.

أطلقت الرصاصة الأولى على الحارس الأول فأصابت جبهته، ونال الحارس الثاني رصاصة استقرّت في قلبه.. ولم يتبقَ غير الهدف المنشود الذي ذُهل من تساقط الرجلين حوله، فأدار جسده إلى الخلف وأخذ يعدو..

عدّلت من وضعيتي وركّزت جيدًا في منظاري، ثم أطلقت رصاصة استقرّت في مؤخرة رأسه معلنة عن انفجار جمجمته ليسقط دون مقدّمات..

وبعدها هنّأني الضابط على نجاح المهمّة، وأرسل لي مبلغًا ضخمًا من المال، وقال لي هاتفيًا:

- كلما نجحتَ كلما زادت النقود بين يديك..

وتوالت المهمّات.

الفصل الخامس

المرارة السوداء

(١)

انتهى الأسبوع الذي قضيته في شرم الشيخ.. استمتعت بوقتي وعرفت أخيرًا طعم الراحة والسكينة..

عدتُ للبيت وليست لديّ أيّ رغبة في العودة مرة أخرى إلى العمل، بالإضافة إلى أني صرت أؤمن أن عودتي من عدمها لن تفرق معهم.. فلم يعد أحد يرغب في وجودي، ولم أعد أرغب في التواجد في ذلك المكان..

عندما وصلت إلى المنزل أعطاني حارس العقار رسالة بريدية قال لي إنها وصلت منذ خمسة أيام واستلمها بدلاً عنّي.. شكرته وصعدت إلى شقّتي..

بعد لحظات كان حارس العقار يضع الحقائب خلفي.. قلت له:

- ضع الحقائب في غرفة نومي ثم اخرج وأغلق باب الشقّة وراءك، وإذا سألك أحد عني قل له لا أعرف عنه شيئًا.

نفّذ أوامري واختفى.

خلعت ملابسي ووضعتها على طرف السرير مبقيًا الرسالة فوقها..

خطر على بالي أن أذهب لزيارة أبي في الصباح، لكنّي تراجعت سريعًا

عن ذلك، وقلت لنفسي:

- لا داعٍ لوجع القلب.

ثم تساءلت:

- هل حقًا قلبي يتألّم من أجل أبي؟

إنه إحساس غريب مبهم تجاهلته، أشعلت التلفاز وقلّبت بين قنواته فلم يرق لي شيئًا، قمت في ضجر وتمدّدت على سريري وغفوت ساعة أو ساعتين، حلمت خلالهما بأنّي أركض في شوارع خالية من المارّة والسيّارات، وكان ورائي أسد يتبعني في كل مكان أذهب إليه، وعندما نال منّي التعب سقطتُ على الأرض غير قادر على المواصلة، وقد رضيت بأن تكون نهايتي في فم ذلك الأسد.. التفتُّ خلفي فظهر أبي وهو يقترب منّي قائلاً:

- لماذا تهرب منّي يا بني؟

وعندما مددت يدي له تحوّل إلى أسد مرة أخرى والتهمني.

استيقظت على صوت دقّات الساعة، كانت تُشير إلى الخامسة بعد الظهر..

قمت واتجهت إلى الحمام. خلعت ملابسي ووقفت تحت الدّش أُحاول التخلّص من آثار الحلم والبحث عن نقطة للراحة وهدوء البال تحت تأثير المياه الدافئة.

* * *

أحكمت ربط البُرنس حول خصري وجلست على طرف سريري..

دائمًا ما كنت أخشى تجميل الحقيقة داخل ذاكرتي، ومع مرور الوقت

أصابتني الخيبة وأصبحت أُجمّل كلّ حقيقة في داخلي، حتى أصبحت أُصدّقها.

وقعت عيناي على الرسالة فتناولتها وفضضت بأطرف أصابعي طرفها، ثم فردتها وأخذت أقرأ:

«عندما يصلك هذا الخطاب أكون قد انتقلت إلى رحمة الله تعالى.. لقد تخلّصوا منّي عندما كشفت سرّهم.. لم تسنح لي الفرصة لإطلاعك على ما وصلت له، لكن لا يزال أمامك فرصة لذلك.. اذهب إلى شقّتي وهناك ستجد في درج مكتبي الأوسط كلّ المستندات التي تدلّ عليهم.. المفتاح موضوع داخل فازة الورد..

لا تصمت على حقّي.. كن كما عهدتك دائمًا.. إنسانًا يُحرّكه ضميره..

المخلص لك دائمًا..

شوكت»

* * *

ظلّ الأرق يطاردني طوال الليل.. لم أستطع النوم من غول التفكير الذي يأكل في رأسي.. تناولت قرصًا مُنوّمًا ولا فائدة.. كان شيء يهمس بآلية في أذني.. الثأر.. الثأر..

كنت في قرارة نفسي مُتوجّسًا ومرعوبًا من حقيقة تلك الأوراق التي تحدّث عنها شوكت في رسالته.. ماذا لو كانت تخصّ أحدًا ذا منصب كبير في الدولة، أو شخصًا له علاقات مُتشعّبة مع السلطة..

كنت أشعر أني سقطت في الوحل، وليس أمامي سوى أن أسير فيه إلى أن أصعد على أرض أنظف وأطهر..

إنني أضحك على نفسي باستمرار، فأنا من دونها تائه لا أعرف طريق الراحة.. رشا، أنا الآن أحتاجك في أحضاني لتُعطيني بعض القوّة، لتهمسي لي:

- لا تخف، كلّ شيء سيكون على ما يرام.

شيء ما كان يمنعني من اتخاذ خطوة إيجابية نحو إجراء اتصال بها.. شيء ما يقول لي:

- امضِ في طريقك بمفردك ولا تنظر خلفك.

لكنّي حقًا لا أعرف هل أريد أن أنظر خلفي أم أن أمضي نحو اللاشيء.. تمنّيت لو أعود بضع خطوات للوراء وأتراجع عن خذلاني لها وأُبقيها معي للأبد.. لكنّي حقًا لا أعرف ماذا سيكون قراري لو أُتيحت لي الفرصة لفعل ذلك..

بدأت حبّة المُنوّم تعمل.. وبدأت عيناي تتثاقل حتى أصبحت غير قادر على حمل جفوني.. سقطت في النوم ورأيت فيما يرى النائم أن شوكت كان يقف أمامي وهو يغرس عينيه في عينيّ، قائلاً:

- هل وجدت قاتلي؟! هل فضحته؟!

أجبت بارتباك:

- سأجده، أعدك بذلك!

- هل ستفي بوعدك؟!

- بكل تأكيد!

قال بأسى وانكسار:

- أنت تكذب عليّ كعادتك دائمًا!

- لا، أنا لا أكذب صدّقني.

- لقد كنتُ أُصدّقك دائمًا وكنتَ تخدعني.

صمتُّ ولم أقدر أن أتلفّظ بحرف.. أما هو فهزّ رأسه بصمت أبلغ من ألف كتاب، واختفى.. ثم ظهر فجأة وفي يده مسدس صوّبه نحوي قائلاً:

- الحياة كانت كبيرة عليك.. لم تكن تستحقّها.

قلت وأنا أرتجف خوفًا:

- أنا لم أعشها بعد!

- لا أحد يعيش الحياة.

وأطلق الرصاص.. وانفجر الدم من رأسي..

استيقظت وأنا أُحاول استجماع أنفاسي اللاهثة.. مسحت العرق الغزير الذي يتصبّب منّي بطرف ملابسي.. كنت أشعر بإرهاق شديد ووجع في كل أنحاء جسدي.. لم يعد الأمر يتعلّق بالأحلام الغريبة فقط.. لم يعد بإمكاني احتمال كلّ هذا العذاب.. ضميري يؤلمني ويقف مثل الشوكة في حلقي..

لا يوجد ثمّة أحد يمكنني أن أُكلّمه.. لا يوجد أحد سواي، لكنّي أُريد أن يسمعني أي أحد.. إنني بحاجة إلى رشا لتضمّني إلى صدرها الدافئ لأبكي..

قمت متجهًا نحو دولاب ملابسي، وأخرجت مسدّسي وبضع رصاصات من داخل علبة موضوعة على أحد الأرفف، ثم حشوت المسدّس بالطلقات الواحدة تلو الأخرى.

وقفت أمام مرآة الحمام وصوّبت فوّهة المسدّس نحو صورتي الظاهرة أمامي.. من الممكن أن تكون هذه هي اللحظة المناسبة.. وأدرت السلاح

نحوي ومرّرته على شفتيّ بلطف، ثم وضعت مقدّمته داخل فمي وضغطت عليه بأسناني.. حركة بسيطة وتنتهي حياتي إلى الأبد.. أصبحت قريبًا جدًا من الموت.. فقط بضع خطوات وأكون في أحضانه..

أخرجت المسدس من فمي ورحت أنظر إلى نفسي في المرآة، ثم أعدته إلى مكانه السابق بين أسناني، ووضعت إصبعي على الزناد.. يجب أن أتحلّى بشجاعة أكبر من ذلك.. إلى متى سأظلّ هكذا؟

أخرجت المسدس مرّة أخرى وتنهّدت ووضعته على رفّ المرآة وقد أخذت قراري الأخير.

- يجب أن أُنهي مهمّتي أولاً.

* * *

(٢)

ضغطت على جرس الباب.. سمعت صوتًا يُكرّر:

- من؟! من؟! من؟!

لم أردّ.. فُتح الباب ووقفت على عتبته سيّدة جميلة في العشرينات من عمرها.. ابتسمت لي ابتسامة ملأت وجهها وهي تقول:

- أهلاً مجدي باشا..

- أهلاً بكِ يا هانم..

وقلت مواسيًا:

- البقاء لله، شدّي حيلك..

- شكرًا لحضرتك..

- لو احتجتِ أي شيء أنا في الخدمة..

- شكرًا.

ظلّت مرتبكة ولم تعرض عليّ الدخول، فأطرقت نحو الأرض أتظاهر

بالإحراج، ثم جاء الصوت هامسًا:

- للأسف أنا بمفردي في البيت ولا أستطيع أن أقول لك تفضّل..

أومأت برأسي كأنّي أتفهّم الموقف، ثم قلت:

- أولاً.. أُقدّم اعتذاري لأني أتيت في وقت غير مناسب.. ثانيًا.. أنا هنا من أجل أمر هام يخصّ قضية زوجك رحمه الله..

قالت بلهفة:

- هل هناك جديد؟!

- نعم.. لكن أولاً أنا أريد أن أدخل غرفة مكتب شوكت..

بدا على وجهها الاستغراب من طلبي، فأوضحتُ:

- السرّ هناك في هذه الغرفة..

- ولكن.. أنا...

وقبل أن تُكمل أخرجت خطاب شوكت وقدّمته لها.. تناولته وجرت عيناها على الكلمات بشكل سريع، ثم نظرت نحوي كأنّها غير مدركة لشيء.. فقلت:

- أنا أيضًا مثلك لا أفهم شيئًا.. لكنّ هذا الخطاب وصلني البارحة.. ولا أعرف إلى أيّ مجهول سيقودني..

ولجتُ إلى غرفة المكتب وهي بصحبتي.. أخرجت المفتاح من قاع الفازة، ثم جلست خلف المكتب وفتحت الدرج الأوسط.. فتشت فيه حتى وجدت ظرفًا أبيض كُتب عليه هامّ للغاية.. فضضت الظرف فجدت به عدّة أوراق.. بدأت ضربات قلبي تتسارع، وتطايرت أمام عينيّ كلّ

المصائب المحتمل حدوثها.. قلت لنفسي:

- ربنا يسترها.

بدأت أتفحص الأوراق.. كانت الورقة الأولى بيضاء، والثانية بيضاء، والثالثة والرابعة.. الملف كلّه أوراق فارغة.. لا شيء بها..

تنفّست الصعداء وشعرت بالراحة تجري في عروقي.. وخمّنت أن أحدهم تسلّل إلى المنزل واستبدل الأوراق بأخرى خاوية.. قلت للزوجة:

- هل تركتِ البيت خلال الفترة الماضية؟

قالت بتلقائية:

- لم أدخله إلا من يومين.. طوال الفترة الماضية كنت عند أمي..

- هل لاحظتِ شيئًا غريبًا في الشقّة عند عودتك؟

- لا.. كلّ شيء كما تركته..

- من المفترض أن يكون ممتلئًا بالأسرار والفضائح.

قلتها وأنا أشير إلى الورق، فقالت في استسلام:

- لا أعرف.. الأمر محيّر.

- في أيام شوكت الأخيرة، هل كان على غير عادته؟

- لا.. لم ألحظ شيئًا عليه.. كان طبيعيًا كما كان دومًا.

- هل كنتِ تحبينه؟!

سألتها دون أن أدرك وقع الكلمات المفاجئة إلا عندما حدّقت بي في ذهول.

* * *

عدت إلى البيت وداخلي فرحة مكتومة لأن الأوراق اختفت وحلّت مكانها أوراق فارغة.. لقد أزاح هذا السارق همًّا كبيرًا من فوق صدري..

الآن أستطيع أن أقول لشوكت في الحلم.. لم أجد شيئًا يا صديقي.. لقد سرقوا كلّ شيء.. لكنّي لن أصمت ولن أقف مكتوف اليدين.. سأظلّ أبحث ليل نهار عنهم حتى أوقع بهم.. صدّقني..هو دائمًا يُصدّقني..

الآن سأضع هذه اللعبة في ركن على الرف وأفكّر في اللعبة الأخرى.. اللعبة الأهم..

* * *

(٣)

- بعد فترة بسيطة ستعرف جيّدًا أن الحياة مجرد وهم.. مجرد سنين محسوبة بين الجدّ والعبث.. بين الخوف والهروب والندم..

هكذا كانت تُخبرني رشا دومًا، وتُضيف:

- انفتح وإيّاك والانغلاق على ذاتك حتى لا تكون مثل أبيك.

حياتي لا تستحق غير النسيان، لا أفتخر بها ولا أجد فيها ما يجعلني أسعى للتمسّك بها، لكن في نفس الوقت لا أملك أيّ قدرة على إنهائها.. كنت أتمنّى الانسحاب من هذا العالم بكل أسبابي الدفينة لأذهب بعيدًا حيث لا يوجد بشر ولا خير ولا شرّ، وألتزم الصمت بقية حياتي بعدما أصبحت عديم الفائدة وبلا معنى..

أنا في مستنقع من الحيرة، أغوص فيه بلا رفيق ولا يوجد منقذ.

أودعت أبي في المصحّة منذ أكثر من سبع سنوات باسم مستعار، حتى لا يُسبّب لي أيّ مشاكل مستقبلية، فلا أُحبّ أن تكون لي نقاط ضعف يتسلّل بها أحد لمساومتي أو التشهير بي.. في يوم ما جعلت أحدهم يتّصل بالعمل

ويُخبرهم أنني لن أستطيع الذهاب اليوم بسبب وفاة أبي، وفي المساء كنت أتلقى فيه العزاء، بينما أصبح هو شخصًا جديدًا لا يمتّ لي بأيّ صلة.

أذهب لزيارته على فترات متباعدة جدًا.. مرة أو مرتين في العام، وأحيانًا كنت لا أذهب على الإطلاق.. فهو لا يتذكّرني جيدًا، ولن يتذكّرني مطلقًا.. وبالتأكيد لا يُريدني بجواره، وأنا لست متفرّغًا حتى أُقدّم له الرعاية الكافية..

عندما دخلت عليه كان يجلسْ هامدًا على كرسي متحرك.. لم يكن مشلولاً ولا به أي شيء.. أخبرني الطبيب أنه توهّم أن قدميه تآكلتا.. عيناه كانت على يده كأنّه يبحث عن شيء ما، وأصابعه نحيله ومُتعَبة.. اقتربت منه.. لم يشعر بوجودي.

- أبي..

لم ينتبه.

- أبي.. هل تتذكّرني؟!

رفع رأسه ببطء نحوي وتفحّصني، ثم أشاح بوجه بعيدًا متسائلاً:

- هل رأيتني يومًا أضحك؟

هززت رأسي بالإيجاب..

طفت ابتسامة حزينة على وجهه، وقال بأسى:

- هل أنا رديء إلى هذا الحدّ حتى تضحك عليّ.. لم يبقَ من جسدي إلا القليل، حتى ابتسامتي تعفّنت..

- أنت بخير..

- أنا سأموت قريبًا.

قلت مُطمئنًا:

- لا تخف يا أبي، سأفعل المستحيل حتى تظلّ على قيد الحياة..

تساءل في استنكار:

- ماذا ستفعل؟! هل ستُعيد لي أعضائي التي تعفّنت؟

- نعم.. سأُعيد لك كل شيء..

سأل والفرحة تُطلّ من عينيه:

- متى؟!

- غدًا يا أبي.

- هل تكذب عليّ؟!

- أنا لا أكذب أبدًا يا أبي.

- بل تكذب كعادتك دائمًا.

سقطت عيني في الأرض ولم أتحمّل البقاء أكثر من ذلك.. تركته ورحلت..

أخبرني الطبيب أن حالته تسوء كلّ يوم، وأصبح معرضًا لانتكاسة شديدة في أي لحظة بعد أن تمكّن المرض منه تمامًا.

* * *

أُفكّر في حياتي الخاوية التي بلا معنى.. الكثير من هذا يحدث أثناء قيادتي السيّارة، يستغرق الأمر معي وقتًا طويلاً، أقود السيّارة بلا وجهة محدّدة، فقط من أجل أن أُجرّب وأرى أين هو عقلي..

سلسلة من الخيبات المتتالية زعزعت كل ما تبقّى داخلي من أعمدة القوى التي حاولتُ مرارًا المحافظ عليها حتى لا أعلن هشاشتي للجميع.

انتفض هاتفي ووصلني صوت وائل المنزعج:

- مجدي باشا، يجب أن تأتي حالاً بأقصى سرعة إلى مكتبك، هناك معلومات جديدة حصلنا عليها بخصوص قضيّة مصطفى..

- خيرًا؟!

أجاب في حيرة:

- لا أعرف ماذا أقول.. يجب أن تأتي فورًا!

* * *

الفصل السادس

كل شيء قد يصير شيئًا آخر

(أ)

أعصابي تتآكل وقلقي يستفحل تدريجيًا..

المصائب لن تتركني أبدًا.. أنتهي من مستندات شوكت فتطفو لي مفاجآت مصطفى..

كان يجب عليّ أن أستقيل فورًا.. الجميع لديه الحق.. الحقيقة مؤلمة وغير مفيدة في شيء.. يا إلهي! لم أعد أستطيع تحمّل كل هذا العبث.. أنا بحاجة إلى أجازة أخرى.. لعنة الله على الحيرة والخوف الذي يُزرع فينا دون أن نشعر..

منذ طفولتي وأنا أخشى دائمًا الأشخاص والتجارب والأماكن الجديدة.. دائمًا ما كان ينتابني رعب غريب من أي شيء جديد يدخل حياتي.. أُحبّ الحياة النمطية الخالية من أيّ مفاجآت أو تجديد.. أُحبّ أن أظلّ داخل مشهد واحد يتكرر كلّ يوم.

جلست خلف مكتبي وطلبت من الساعي فنجان قهوة وإخبار وائل بوصولي..

شعرت بضيق في صدري مع الأحداث المتقلّبة بسرعة هائلة، وقلت لنفسي:

- أيعقل أن يحدث كل هذا في هذا الوقت القصير!

لحظات وكان وائل واقفًا أمامي يُقدّم لي ورقة مطويّة، وهو ينظر نحوي بترقّب وأنا أفردها وأقرأ ما بها.

بتاريخ: ١١ مايو ٢٠١١

الإسلام الحق: «هدّدهم بفعل شيء عظيم.. ولا تخف نحن معك»

مصطفى: «مثل ماذا؟!»

الإسلام الحق: «قتل أحدهم مثلاً ^_^»

الإسلام الحق: «استمرّ في إرعابهم.. ولا تتوقف»

الإسلام الحق: «ما رأيك فيما فعلنا؟! هل صدّقت أننا معك نؤمن بنفس قضيّتك؟»

مصطفي: «من أنتم وماذا تريدون منّي؟!»

- جميل.. ولكن لم أستفد شيئًا!! ما هذا؟!

قلتها وأنا أرمي بالورقة فوق سطح المكتب.. وقبل أن يُعلّق وائل طُرق الباب ودخل الساعي.. وضع الفنجان وانصرف.. تناولت القهوة وأخذت رشفة وأنا أتابع وائل في انتظار إجابته..

- هل تسمح لي بالجلوس؟
- تفضّل.. آسف لو كنت تركتك واقفًا..

جلس وهو يحاول استجماع أفكاره كأنّه لا يعرف من أين يبدأ.

- هذه كانت بعض الرسائل التي وجدناها في صندوق بريد مصطفى في حسابه على الفيس بوك بعد اختراقه من قبل المحترفين الذين

أوكلنا لهم هذه المهمّة..

- تمام.. أكمل..
- لا أعرف ماذا أقول.. أنا إلى هذه اللحظة غير مستوعب..

حدّقته بعينيّ مستوضحًا، فتابع كلامه بعد صمت قصير، وقال بنبرة أصبحت فجأة رصينة:

- قمنا بالتحريّات أكثر من مرة، وأنا بنفسي تأكّدت من كلّ المعلومات.. كنت أتصوّر أن الأمر فيه شيء خطأ.. لكن في النهاية تأكّدت أن الشخص الذي كان يُراسل مصطفى هو الشيخ رسلان.
- رسلان!!

قلتها مذهولاً والقهوة تندفع من فمي على ملابسي..

* * *

صدمة أخرى تُضاف إلى سلسلة الصدامات التي تعرّضت لها في هذا اليوم.. منذ لحظات هاتفني أحد العاملين في المصحّة وأخبرني أن أبي ألقى بنفسه من النافذة وترك رسالة قال فيها:

«هل تستطيع الملائكة أن تعيش مع البشر؟

بالطبع لا.. لذلك حاولت الانتحار لأن عقليتي عقلية ملائكية، وهذا هو سبب تآكل وتعفّن جسدي»

وهكذا انتحر أبي بمنتهى السهولة.. كنت على يقين أنه تقصير منهم وقلّة رعاية، رغم كلّ الأموال الطائلة التي أدفعها كلّ عام، لكن في نهاية الأمر لست حزينًا ولا أشعر بالغضب، كأنّ الذي مات شخص غريب عنّي قرأت خبر وفاته في الصحف.

طلبت منهم دفن الجثّة بمعرفتهم.. لم يكن عندنا مدافن خاصة بالعائلة، ولم يُخبرني أبي عن شيء كهذا.. حتى أمي لا أعرف أين قبرها.. ولم أطلب من أبي يومًا الذهاب لزيارتها..

* * *

(٦)

عندما دخل عليّ رحبت به قائلاً:

- مولانا.. أهلاً بك..

- أهلاً بك يا باشا.

- تفضّل بالجلوس..

جلس وهو كالعادة يرنو إلى الأرض ويتمتم بالاستغفار، وأصابع يده اليمنى تُساقط حبّات المسبحة.. قلت له:

- لك وحشة يا شيخ رسلان.. ما أخبارك؟

- نحمد الله يا باشا.

- لديّ رسالة لك..

ومددت يدي بالورقة التي أعطاني إيّاها وائل.

- اقرأ..

نظر في الورقة وتدريجيًا بدأ وجهه يضطرب وعيناه تزيغ، ثم رفع رأسه

نحوي في استسلام.. واجهت نظراته المتردّدة وسألته بلهجة تحمل قدرًا كبيرًا من الثقة واصطناع المرح:

- احكِ لي.. أريد أن أسمعك..

- عن أي شيء تُريد أن تسمع؟

- من قتل شوكت؟

- نحن..

- من أنتم؟!

- لا داعِ الآن لذلك، لأن هذه التفاصيل لن تُفيدك في شيء.

قلت منفعلاً وأنا أخبط بقبضة يدي على سطح المكتب:

- إذا لم تُجب على أسئلتي بطريقة طبيعية فسأقتلك!

ضحك ضحكة مقتضبة وقال:

- هدّئ من روعك.. الانفعال لن يفيد في شيء.

صمتُّ قليلاً أحاول السيطرة على أعصابي المندفعة، وسألت:

- لماذا؟!

تساءل مندهشًا:

- لماذا!!

قلت موضّحًا:

- لماذا قتلتم شوكت؟

- طلب منّا فعل ذلك..

- من الذي طلب؟

- شخصية مهمّة جدًا في الدولة.. لا أستطيع التلفّظ باسمها..

علّقت محذرًا:

- شيخ رسلان! أنت هنا متهم في قضية قتل.. فساعدني حتى أساعدك!

فقال بكلّ ثقة وبرود:

- لا أريد مساعدة من أحد.. كما قلت لك سابقًا وأكرّرها.. الموضوع أكبر منّا جميعًا..

رنّ هاتفي.. كان رئيسي في العمل، قال لي بحسم:

- الشيخ رسلان يرحل فورًا!

ثم أغلق الخطّ في وجهي كالمعتاد.. نظرت نحو الشيخ رسلان وقلت:

- يبدو حقًا أنه شخص مهم أكثر ممّا تصوّرت.. لكن قبل أن ترحل أفهمني ماذا يحدث!

- قلت لك من قبل الموضوع أكبر من أيّ شخص.. أكبر منّا جميعًا.. صدّقني لا أستطيع قول أكثر من تلك الجملة التي أكرّرها كلّما سألتني.. لا أملك أيّ شيء أستطيع قوله لك..

- ومصطفى؟!

- مصطفى لا نعرفه.. ولا نعرف أيّ شيء عنه.. كان كلّ هدفنا أن نصل إليه، إنه مهم جدًا بالنسبة لمن يحرّكوننا..

وأشار بسبّابته نحو السماء، ثم تابع:

- لكن إحقاقًا للحق.. كلّ شيء حكى عنه مصطفى كان محض خيال

بحت.. كذب في كذب.. لا يوجد شيء صحيح ما عدا محاولة اغتيال نائب الرئيس.. المعلومات التي لدينا أن كلّ من قام بتنفيذ المهمّة تمّت تصفيته في الحال، باستثناء شخص واحد فقط لم نستطع التوصّل لمكانه.. القنّاص الذي تمّ إسناد المهمّة له.. اختفى في ظروف غامضة منذ الحادث.. وردت أنباء أنه ذهب إلى ليبيا.. لكنّ هذه المعلومات غير مؤكّدة مائة في المائة.. وعندما ظهر مصطفى انتابنا الشكّ وخفنا أن يكون فعلاً صادقًا ويُسبّب لنا الكثير من المشاكل في هذا الوقت الحسّاس، ونحن لا نريد أن نترك شيئًا للظروف، لذلك حاولنا التقرّب منه لكي يثق بنا فيسهل الوصول إليه..

- لكنّك شكّكتني في كلّ شيء.. وأوحيتَ لي أنه شخص حقيقي!

- لم يكن أمامي خيار عندما شعرت أنك لا تعرف عنه أيّ شيء سوى المشاركة في لعبته.. وفّرت عليّ مجهودًا كبيرًا.. وكنت على ثقة كبيرة أنك لن تعرف أيّ قدر من الحقيقة أو الكذب في كلماتي.

- بكلّ هذه البساطة!!

- هذه هي الحياة يا باشا..

صمتُّ قليلاً ثم تساءلت في ريب:

- لماذا اخترتم شوكت؟!

- شوكت وصل لبعض المعلومات كادت أن تتسبب في توريط شخص مهم في قضية نائب الرئيس.. لا نعرف كيف وصل لها..

قاطعته مستوضحًا:

- تقصد...

قاطعني:

- تمام.. هو..

- لعبة رائعة.. وهكذا يُتّهم مصطفى بالجريمة ولا حرج عليكم..

- تمام..

تنهّدت في حنق وقلت:

- آخر شيء سأطلبه منك.. مصطفى.. كيف أصل إليه؟

- نحن إلي الآن عاجزين عن الوصول إليه..

- الأمر مضحك جدًا يا شيخ!

- لا شيء مضحك، أنت فقط غير مدرك لتغيّر الأمور.. نصيحة: التزم الصمت!

- الكلّ يريدني أن أصمت.. أصمت.. أصمت.. أصمت.. أصمت.. متى أتحدّث يا شيخ؟!

ثم قلت كالمعتذر دون انتظار إجابة:

- سأصمت!

* * *

(٣)

أنها نكتة العام..

مشيت إلى النافذة واستندت عليها والسيجارة في فمي.. الشيخ رسلان وتنظيمه هم من قتلوا شوكت، الذي مات بسبب سذاجته وطيبة قلبه ويقظة ضميره.. لم يفهم أن من يحمل ضميرًا في هذا العالم كمن يحمل كفنًا، في أي لحظة سيتمّ قتله أو قتل ضميره، ولكلّ واحد فينا حق الاختيار..

تهت بين أفكاري المتشابكة ولم أفق منها عندما طُرق الباب على عجل وفُتح، ليندفع وائل قائلاً:

- حدّدنا مكانه.. إنها فرصتنا!

- تقصد من؟!

- مصطفى..

* * *

اندفعت السيّارة بنا بأقصى سرعتها، وعندما وصلنا انتشرت القوات في كل مكان.. لفت نظري أحد الجنود الذي تسمّر مكانه وهو يُشير لي قائلاً:

- هنا يا فندم.

كنت أنظر في عجز وأنا أقترب منه.. ظهر لي الجسد مسجى على الأرض جثة هامدة لفظت أنفاسها، والدماء الغزيرة تتسرب من ثقب في رأسه، وحقيبته وجهاز اللاب توب ـ متصل بفلاش يو إس بي مودم- مطروحًا على مبعدة يسيرة منه، و يبدو عليه أن الجهاز تعرّض لمحاولة تحطيم.. نظرت نحو وائل متسائلاً:

- هو؟!

أومأ برأسه قائلاً:

- أجهزة التتبّع تقول إنه هو..

- وكيف عرفتم مكانه؟

- دارت محادثة مع مصطفى على حسابه في الفيس بوك.. استمرّت حوالي ساعة.. مع شخص مجهول لم نتمكّن من تحديد مكانه أو الوصول إليه.. كان يستخدم أساليب متطوّرة في التخفّي الإلكتروني والهروب من التتبّع..

أعطاني ورقة بها المحادثة التي تمّت.. نظرت فيها سريعًا، ثم سألته:

- ما تفسيرك لكلّ ما حدث؟

- تفسيري الوحيد أن هذه المحادثة كان هدفها إطالة الوقت أكبر قدر ممكن حتى يتمّ تحديد المكان..

- ثم يذهب قنّاص ويقتله..

- بالضبط..

- لكن من حدّد مكانه؟! وكيف؟!

- موضوع مثل هذا يحتاج إمكانيات كبيرة لا قبل لجماعات أو تنظيمات بها.. الأمر لم ولن ينتهي.. والقصة ليست بسيطة على الإطلاق..

* * *

لا أعرف هل كنت سعيدًا أم لا مباليًا بانتهاء هذه القضية وغلقها إلى الأبد.. مات مصطفى في العراء وحيدًا بعدما وجدنا معه بطاقته الشخصية، وطلبت من وائل البحث عن أهله، فلم يجد له لا قريب ولا بعيد ولا أحد يعرفه.. كان مقطوعًا من شجرة.. وجدنا له ملفًا لدينا في الأرشيف.. كان متّهمًا بالشروع في تفجيرات كنيسة القديسَين واغتيال ضابط.. كان تحقيقًا غير مكتمل وتمّ إخلاء سبيله حينها لعدم توافر الأدلّة.. لكنّي كنت مرتاحًا للانتهاء من هذا المجهول الذي لم أكن أعرف أي جحيم سيقودني إليه.. الآن الشكّ مات والحيرة اندثرت داخلي، وهبطت السكينة والطمأنينة فوق قلبي المنهك من الوحدة وغياب رشا الذي طال..

طُرق الباب ودخل وائل والهمّ راكبه، حاملاً رزمة من الأوراق في يده قدّمها لي قائلاً:

- كلّ هذه الأوراق طبعتها من جهاز اللاب توب الخاص بمصطفى، بعدما ساعدنا الخبراء في استخراج الهارد ديسك من الجهاز المحطّم ونقل كلّ محتوياته على جهاز آخر..

- ما كلّ هذا!!

- كل ما وجدته طبعته.

- هل هناك جديد؟! أريد إغلاق هذا الملف للأبد..

- أعتقد أن الأوراق ستهمّك.

- ماذا بها؟!

- إنها عبارة عن مذكّرات مصطفى الشخصية.. قصة حياته.

- تمام.. سوف أقرأها.

فقال ملّحًا:

- يجب أن تقرأها!

نظرت له مبتسمًا:

- إن شاء الله سأفعل.. لا تقلق..

ظلّ واقفًا متردّدًا.

- ما بك؟!

وضع يده في جيبه وأخرج ورقة قدّمها لي.

- ما هذا؟!

- طلب نقل من هذا المكان.

- لمَ؟!

- لم أعد أستطيع العمل في هذا الجو المضطرب.

- لماذا؟!

- أخاف أن يتكرّر معي مصير شوكت.

- وأنا أيضًا أخاف نفس المصير.

حدّق في عينيّ بإشفاق فاستفسرت منه:

- وماذا تريد منّي أن أفعل؟

- أن تُساعدني في مسألة النقل من هنا.

- اتركها وسوف أُحاول.. لكنّك سترحل بعدما ارتحت لك وللعمل معك!

- أنا أيضًا كنت أتمنى الاستمرار.

ثم ابتسم لي ورحل.

* * *

(٤)

غياب أبي المفاجئ لم يتوقف العالم أمامه ولو حتى للحظات.. الحياة تسير وتستمرّ.. كان أبي يقول لي:

- لا يوجد أحد في الدنيا ليس له بديل.. ربما يكون الصعب أن تجده، لكن المهم أنه موجود.. الحياة لو كان بها أشخاص ليس لهم بديل لأصبحت جحيمًا لا يُطاق، وهذا من نعم الله علينا..

أبي كان شخصًا مسكينًا وكانت له سيماء صادقة. كان كلّ ما يهمّه أن يعلم إذا ما كان جسده كلّه سيتعفّن أم إن هناك أملاً للحفاظ عليه.. احتفظ بسؤاله في ضبابه الذي لا يتبدّد.. ورحل بلا ضجّة.

أصبحت أرى الكثير من الأشياء المفقودة التي تُشعرني بالحنين، والكثير من الخيبات التي تُذكّرني بالألم، والكثير من الحزن يُذكّرني أن قدرتي على الإحساس الحقيقي بالحياة قد اختفى.

أصبحت وحيدًا، متعطّلاً، مثقلاً بالشيخوخة، ولم يعد لديّ أيّ أمل أو حلم.. الحزن لم يبرح مكانه في قلبي.. إن الحزن عنيد لا يتزحزح أبدًا من داخلي..

لكن في نهاية اليوم كان هناك ما هو أفضل.

عدت إلى منزلي ومعي الورق الذي تركه لي وائل. فتحت الباب فوجدت فتاة جميلة تبتسم لي.. حملقت فيها بعينين متفحّصتين.. إنها فعلاً رشا وقد قصّت شعرها.. أنا إذن لا أتوهّم.. شعرت بالراحة تجري في جسدي، وتنفّست الصعداء بعدما أصبحت أمامي حقيقة واحدة، أنها عادت.

أقبلتُ عليها لآخذها في حضني وأطبع قبلة على شفتيّها.

- تأخرتِ كثيرًا!

قالت بلوم:

- أنت لم تسأل عنّي!

- كنت تائهًا بدونكِ.. لا أعرف أيّ طريق أسلك.

همست بوجه كالأرجوان:

- أنتَ لم تغب عنّي مطلقًا!

- كنتُ أشتاق إليكِ.!

- ولذلك قادني الحنين وعدت!

- لا أستطيع أن أُصدّق أنكِ معي.. كأنّه حلم!

- حياتنا كلّها أحلام هائمة.

ومضت ثوانٍ من الصمت، ثم قالت:

- رغم أن لا شيء قادر على إعادة لحظات السعادة التي قضيناها سويًّا، إلا أنني كنت أدعو الله أن يمنحني رؤيتك مرة أخرى.. كانت هذه هي أمنيّتي الوحيدة.

كنت حقًّا أفتقدها.. هل أحببتها؟ لا أدري.. ولكنّي أريدها جانبي..

تبادلنا النظرات وضحكنا.. هبطت السعادة على قلبي وتجاوزنا الأمر بعد الاعتذار، ورميت بذاكرتي إلى الوراء، ومضينا إلى الفراش..

* * *

الفصل السابع

من الآن فصاعدًا سترتبط السنوات في ذاكرتنا بالمآسي

(١)

اسمي بالفعل مصطفى حسين السيّد، لكن لست قنّاصًا، ولم أحصل على وسام الجمهورية في الرماية.. لم أحصل على شيء.. لم أشارك في اغتيال السادات ولا أحداث أسيوط.. ولم أنتمِ إلى أيّ تنظيم أو جماعة طوال حياتي.. لكنّي أتشارك فقط في أول اسمينِ من اسم القنّاص الحقيقي.

حكايتي تتلخّص في جملة بسيطة وعادية:

«ضابط دخل منزلي عن طريق الخطأ وقبض عليّ وهو يعرف أنني الشخص الخطأ».

جملة لو مرّت على أذن أحد لن ينتبه إليها ولن يتوقّف أمامها لأنها قصّة عاديّة مكرّرة سمعها كثيرًا..

خطأ فادح قادني إلى رحلة دمّرت حياتي.

استيقظت من النوم على ضربة هوت على خدّي.. صُدمت عيني بمجموعة من الرجال فوق رأسي مدجّجين بالسلاح.

سألت في خوف:

- من أنتم؟!

حدّق بي كبيرهم وعلى وجهه علامات السخرية:

- من حقّك أن تعرف من نكون.. حتى لا تُرهقنا معك بعد ذلك.. ولكي تُساعدنا بكل همّة وإخلاص..

ثم صمت قليلاً ليُشعل سيجارة أخرجها من جيب بذلته، وقال:

- أُعرّفك بنفسي.. الضابط آدم من أمن الدولة.

هبط الرعب في قلبي وأحسست أن الدنيا تدور بي، فقلت بارتباك:

- ماذا فعلتُ يا باشا؟!

تجاهل تساؤلي وسألني:

- أنتَ أحمد عبد التواب؟

أجبت على الفور وكأنّ طوق النجاة رُمي لي:

- لا.. أنا مصطفى حسين السيّد يا باشا.

ساد الصمت لثوانٍ معدودة، ثم كسره الضابط وهو يحدّق بي ويأمر الجنود بتفتيش الشقّة بالكامل، فلم يجدوا شيئًا يُمكن أن ينفعهم، فعادوا من انتشارهم خائبين.

سألني الضابط بوجهه الصارم:

- أنتَ أحمد عبد التواب؟!

- لا.. والله العظيم أنا مصطفى حسين السيّد.. أحمد عبد التواب كان يسكن أمامي ورحل منذ يومين ولا أعرف عنه أيّ شيء.. والله العظيم يا باشا أنا لا أكذب، وحضرتك تستطيع أن تسأل الدنيا كلّها

فتجيبك عمّن أكون، والبطاقة الشخصية تُثبت صدق كلامي..

ومددت يدي تحت الوسادة وأخرجت البطاقة التي تأمّلها الضابط آدم بين يديه صامتًا، مكتفيًا بهزّ رأسه لأعلى وأسفل، وتجلّت في عينيه نظرة فاترة وهو يرمي البطاقة في وجهي ويُغمغم:

- هذه البطاقة مزوّرة.

- مزوّرة!! لا يا باشا، والله العظيم سليمة!

- لا تُتعبني معك.. أنا مرهق ولم أنم منذ يومين..

ثم قال بحسم:

- سوف نعرف كلّ شيء لدينا.

- أين يا باشا؟!

- عند أمك!

وهوت يد على وجهي صفعتني بقوّة، ثم سحبني اثنان إلى السيّارة الواقفة بالخارج، وتمّ وضع قماشة سوداء على عيني.

ظلّت السيّارة تسير قرابة نصف الساعة حتى توقّفت وهبطتُ منها بدفعه قوية من أحد العساكر، فانكببت على الأرض لتتصدّع أضلاعي و أئن من الألم.

قادوني إلى غرفة ليس لها معالم، مصمتة، قطع صمتها صوت الضابط آدم آمرًا:

- أزل الرباط من فوق عينيه.

وجدت آخرين معي.. تقريبًا تعرّضوا لنفس ما تعرّضت له.

وقال الضابط مخاطبًا أحد العساكر:

- ألقِ في أيّ داهية إلى أن يطلع النهار.

- حاضر يا فندم.

وتركنا الضابط آدم ورحل، وتمّ تقسيمنا إلى مجموعتين، كل مجموعة تتكوّن من عشرة أفراد، ومعهم اثنان من أمناء الشرطة.

قال لنا الأمين سيّد بودّ:

- من يريد طعامًا أو شرابًا أو الذهاب إلى التواليت يخبرنا.. فنحن هنا لخدمتكم.

كان أسلوبهم رقيقًا ومهذّبًا، وتمّ تنفيذ طلباتنا في الحال، وعندما انتهينا قال الأمين الآخر وهو يُدعى فريد:

- استعدّوا للنوم.

وربطوا كلّ واحد منّا من قدميه ويديه، وعصبوا أعيننا وأغلقوا النور وانصرفوا.. كنت مُتعبًا للغاية والهواجس تحوم فوق رأسي كالطير، أفكر في ذلك المصير المظلم الذي سقطت فيه دون أن أدري، لكن كان بداخلي خيط أمل رفيع أن يكتشفوا الخطأ ويخرجوني من هنا.. ونمت.

* * *

استيقظنا على ضربات مُشكّلة من أقدام عدّة ضبّاط، وهم يشتموننا ويسبوننا بألفاظ قبيحة، ثم نادوا علينا واحدًا تلو الآخر، ووضعونا في صف مستقيم، وظللنا واقفين أكثر من ساعتين ومازلنا مقيّدين والغمامات فوق أعيننا.

تمّ النداء على فلان فردّ عليهم:

- موجود.

وهمس الأمين فريد مواسيًا:

- الافتتاح بك يا مسكين.. حظّك سيّء جدًا.. نصيحة لا تُراوغ معهم وقل لهم الحقيقة كاملة.

فردّ عليه الشاب باكيًا:

- والله لقد قلت لهم البارحة كلّ ما أعرفه يا حضرة الأمين، ومع ذلك لا أحد يُصدّقني..

واختفى صوته لمدة ربع ساعة، وفجأة سمعنا صوت يقول بأقصى ما عنده:

- وحياة أمك يا بن المـ... لأجعلنّك تنقلبَ إلى سوسن.. أحضر لي السرير يا عسكري!

وسرى الرعب في جسدي عندما سمعت ذلك وأدركت أني مُقبل على الجحيم بعينه، وأن المسألة مجرد وقت لا أكثر.

ومرّت دقائق معدودة إلى أن أتوا بالسرير، وسمعنا:

- آآآآآآآآآآه.. آآآآآآآآآآآآآه..

ويقطع أحدهم صوت الآهات:

- ها؟ هل عرفت شيئًا؟! ها؟ هل ستتكلم؟!

وتأتي الإجابة صارخة:

- والله لا أعرف شيئًا يا باشا.. أُقبّل يدك، ارحمني سأموت!

لحظات وسمعنا الضابط يقول بصوت مُنهك:

- يا بني تعالَ امسح مكان الدم المتسرب من بين فخذيه..

ثم سمعنا بعد انقضاء بعض الوقت:

- أحضر لي يا بني إبرة التنجيد.. لديه جرح في رأسه ويريد الخياطة حالاً حتى لا تتفاقم الواوا!

وتبعها بضحكة عالية تردّدت في جوف المكان.

استمرّ تعذيب هذا الشاب حوالي ٤ ساعات دُمّرت خلالها أعصابي وشعرت أن الأرض تدور بي وأن الهلاك قادم لا محالة.. كنت أريد أن أبكي، وكنت خائفًا أن أبول على نفسي.

بعد نصف ساعة أخرى تمّ إزاحة الأربطة من فوق أعيننا، وجلسنا نترقب مصيرنا فيما هو قادم.

خرج الشاب من غرفة التعذيب وأتى إلينا في غرفة الاستقبال.. كان يزحف على يديه غير قادر على السير.. مكسورًا محبطًا مبعثرًا.. تبادلنا النظرات فيما بيننا وعين كل واحد منا تتساءل:

«هل سيحدث لنا مثله؟!»

قال الأمين سيّد مخاطبًا الشاب بلوم:

- يا بني أرح نفسك وأرح الباشا وقل له الحقيقة!
- والله العظيم لقد قلت كلّ ما أعرفه.

خرج صوته مشروخًا باكيًا.

بعد قليل أتوا بثلاثة شباب من الخارج، وقال لهم الأمين سيّد:

- اخلعوا ملابسكم الخارجية أنتَ وهو!

نفّذوا دون أدنى اعتراض، وجلسوا على الأرض حتى سمعوا أسماءهم، ثم قادوهم إلى غرفة التعذيب.. بعد قليل قال لنا الأمين فريد:

- استعدّوا وعلى الجميع الوقوف صفًّا واحدًا.

ساقونا إلى الطرقة، وكان هذا مؤشّرًا على أننا اقتربنا من اللحظة الحاسمة.. وارتجفت عندما بدأت أسمع بعض الأصوات المتلاحقة.

- يا ابن الـ..... لن تخرج من هنا إلا بعد أن تعترف بكل ما تعرفه.. أرح نفسك واعترف أفضل لك، حتى تخرج من هنا!

فجأة باغتتني ركلة في قدمي، والضابط يقول:

- الدور عليك يا ابن الـ.....

سقطت على الأرض متألّمًا دون أن أنطق بحرف.

وقال ضابط آخر بصوت محايد:

- اجهز يا مصطفى، أريد أن أُدردش معك.. قف وأزل الغبار عن ملابسك.

قادني أحد العساكر إلى داخل إحدى الغرف، قال لي وهو يضحك إنهم يُطلقون عليها السينما نظرًا لثبات مواعيد التعذيب، مثل حفلات السينما بالضبط.

وقفت أمام الضابط متوجّسًا محدّقًا في بلاط الغرفة، قبل أن يقول لي بهدوء:

- قل لي يا مصطفى، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ وما حكايتك؟

بدأت في سرد ما حدث لي بالتفصيل وكيف أتوا بي عن طريق الخطأ،

وأخبرتهم أنني طوال حياتي أمشي بجوار الحائط، وليس لي أيّ انتماءات سياسية ولا أتحدّث في السياسة، ولا حتىٰ أصلّي أو أتردد علىٰ المساجد.

سألني في شكّ:

- هل هذه هي الحكاية؟!

- والله العظيم قلت كلّ ما عندي!

قاطعني الضابط قائلاً بلهجة مهدّدة:

- هل ترىٰ هذه السيجارة التي في يدي؟ إذا انتهيت منها قبل أن تقول لي كلّ شيء سأقوم من مكاني.. ولو قمت لن يحصل خير أبدًا!

كانت السيجارة قد تبقّىٰ بها نفس أو اثنان، فقلت وأنا علىٰ وشك البكاء:

- والله العظيم يا باشا ليس لي أيّ علاقة بأيّ شيء.. إنه شخص كان يسكن بجواري، ولا أعرفه جيّدًا ولا أعرف أين ذهب..

جذب آخر نفس ورمىٰ السيجارة علىٰ الأرض وفركها بطرف حذائه، قائلاً:

- انتهىٰ الكلام يا بني.. استعدّ لأسوأ يوم في عمرك..

قام واقفًا وهو يدور في المكان، ثم قال:

- هل تعرف من أنا؟

هززت رأسي نافيًا.

- الآن ستعرف من أكون.

وجرىٰ الرعب في جسدي.

تقدّم أحد العساكر نحوي ومعه الصاعق الكهربي «التونيك»، وقال محيّيًا:

- نهارك سعيد.

وهيّأ الصاعق للعمل وهو يقول ساخرًا:

- الأمر بسيط، لا تخف، إنه مثل شكّة الدبّوس!

ومن أول صعقة في ذراعي وجدت نفسي علىٰ الأرض وجسمي ينتفض وأنا أصرخ من شدّة الألم، فركلني العسكري بحذائه في معدتي وقال:

- كفاك ولّولة كالنسوان!

ثم قال الضابط:

- اخلعوا عنه الملابس.

واستمرّت الدغدغة الكهربائية لمدة أربع ساعات، تخلّلها بعض الأسئلة.

- ما اسم التنظيم الذي تنتمي له؟

- لا أنتمي إلي أيّ تنظيم.. والله العظيم أنا إنسان في حالي وليس لي علاقة بأيّ أحد.

- من الذي أغواك للانضمام إلىٰ هذه الجماعة؟!

- جماعة!! جماعة من؟!

وهوىٰ كفٌّ علىٰ وجهي.

- جماعة أمك يا خفيف!

- أعطنا اسمًا، اثنين أو ثلاثة أنتَ تشكّ بهم.

- لا أعرف أحدًا.. والله لا أعرف أحدًا!

وهوى الصاعق على جسدي، فصرخت دون أن أدري بعدّة أسماء بشكل عشوائي، وعلى ما يبدو أنها لم تكن كافية لهم، فقال الضابط:

- إبرة التنجيد يا بني.

وبدأ الضابط يرشقها بشكل متتالٍ في رأسي وأنا أبكي من شدّة الألم، حتى صعبت عليه كما يبدو، إذ إنه قال بعدما انتهى:

- خذه وأعطه حبوبًا لمنع الألم.. لا أريد سماع صوت ابن القحـ..!

قادني أحد العساكر إلى الخارج، وقدّم لي أحدهم قرصين، فقلت:

- ماء!

فردّ ساخرًا:

- أنت جسدك به كميّة كبيرة من الكهرباء، ولو أوصلنا بك لمبة ستُنير وحدها.. المياه خطر جدًا عليك الآن..

ابتلعت القرصين ثم قلت:

- أريد طعامًا..

- لا أنصحك بالأكل على الإطلاق.. الضرب سيبدأ مرّة أخرى، ويجب أن تكون معدتك فارغة حتى لا تتعب وتموت منّا.

استرحت ما يقرب من الساعتين، ثم جاءني الأمين فريد وقال:

- مصطفى، قم، الباشا يريدك.

وهمس لي مُعاتبًا:

- خلّص نفسك وأخبرهم بكل شيء، كي تذهب إلى بيتك.

- والله قلت لهم الحقيقة كلّها ولا أحد يُصدّقني!

- يجب أن تعرف شيئًا أفضل من ذلك.

قادني إلى غرفة جديدة وضابط جديد، عندما وقفت أمامه تفحّصني جيّدًا وقال لي بنبرة ودودة:

- كيف حالك يا درش؟

- والله العظيم يا باشا لقد قلت كلّ ما عندي!

هوى الكفّ على قفاي من عسكري يقف خلفي قائلاً:

- ردّ على الباشا يا ابن الـ.......

وأوضح:

- الباشا سألك كيف حالك؟

قلت في انكسار:

- الحمد لله يا باشا.. تمام.

ثم قال الباشا:

- لماذا أنت هنا؟

وقال محذّرًا:

- ويجب أن تضع في الاعتبار قبل أن تنطق بأيّ كلمة.. الكلام قبل الكهرباء محسوب لك.. والكلام بعد الكهرباء محسوب عليك.

- لقد أتوا بي هنا عن طريق الخطأ.. فلست أنا الشخص المطلوب..

فقال منفعلاً:

- أيّ خطأ يا ابن الو...؟! أنت تمّ التبليغ عنك، وكما هو مكتوب أمامي وجدوا لديك أفلامًا لكيفية تركيب القنبلة وكيفية تفجيرها عن بعد، وأفلامًا عن الجهاد في أفغانستان، وكلّ شيء كان عندنا علم به من فترة كبيرة، وكنتَ تحت المراقبة..

ردّدت بدهشة:

- والله العظيم لا أعرف أيّ شيء عن الأفلام ولا عن الجهاد.. أنا لا أُصلّي من الأساس ولا أذهب إلى الجامع.

- وكمان تدّعي الكفر والإلحاد؟!

ثم ضحك بسخرية تبعها بنبرة تملؤها الجديّة قائلاً:

- طالما دخلت هنا سواء عن طريق الصواب أو الخطأ.. لابدّ أن تتكلم.. ويجب أن تُحاسب.. هيّا، اعترف بكلّ ما تعرفه قبل أن أقوم وأطلّع ..... أمك، وأُحضر السرير..

وقال محذّرًا:

- أنا مُتعب ولا أريد أيّ «مُناهدة».

- سأقول يا باشا، لكن بدون ضرب أو كهرباء من فضلك.

هزّ رأسه معجبًا بالطريق الذي قررت السير به، قائلاً:

- جميل.. تفضّل بالتحدّث.. أنا أسمعك..

ثم تابع مُحذّرًا:

- وإيّاك أن تسلك طريق المسكنة.. لن أتعاطف معك.. أنا أُعذّب الناس منذ خمسة عشر عامًا، وقلبي لن يلين لك أبدًا..

- حاضر يا باشا.

- ها، أسمعني!

- والله يا باشا أنا قلت كلّ ما أعرفه، ولا أعرف ماذا أقول.. حضرتك قل لي ماذا تُريد أن تسمع وأنا سأعترف به بلا تردّد.

فكّر قليلاً ثم قال مرحّبًا بكلامي:

- تمام.. قل لنا تحديدًا ما علاقتك بتفجير كنيسة القدّيسين، ومن أين أتيت بالقنابل، ومن كان معك، وإيّاك والإنكار.. أنت اسمك مكتوب عندي في التحقيق..

- اسمي في التحقيق.. يا باشا أنتم قبضتم عليّ عن طريق الخطأ!

- خطأ!! إذن نحن نفتري عليك؟!

- لا يا باشا، لا أقصد..

- من الواضح أنه لا توجد فائدة منك.. هاتوا السرير.

وفي ظرف دقيقة واحدة كان السرير مُنتصبًا أمامي وتمّ هتك عرضي.

وبعد فترة أدركت فيها أنه لا مفرّ، صرخت قائلاً:

- سأقول، والله العظيم سأعترف بكلّ شيء!

أشار الباشا لهم بالتوقّف مستفسرًا:

- ماذا ستقول؟

- لا أعرف، لكنّي سأقول كلّ ما تُريدني أن أقوله!

ثم وجدت نفسي أختلق قصة وهمية من نسج خيالي وأسماء زائفة..

وجدت نفسي أحكي عن وقائع أول مرة أعرفها، والعجيب أنهم كانوا يدّعون أنهم يُصدّقون ما أبتكره من تأليف.. بعدها أمر بفكّ القيود من يديّ وقدميّ، وقال:

- أنت الآن ستخرج إلى أن نحتاج لك، وإيّاك أن تفتعل أي مشكلة!

اصطحبني الأمين فريد إلى الخارج، وقال لي ساخرًا:

- يخرب بيت عقلك! مازال فيك نفس لتنطق! أنت كان يجب أن تكون ميّتًا من البارحة!

ثم استدعوني لسماع أقوالي مرّة أخرى أمام ضابط آخر، وقلت لهم القصة التي اخترعتها، وخرجت إلى الشارع أخيرًا وعدت إلى البيت، وبعد يومين غادرت منزلي إلى سكن جديد، ولازمت محلّ إقامتي ولم أبرحه أبدًا.

انغلقت على نفسي وابتعدت عن الجنس البشري كلّه، متقوقعًا في وحدتي مع ألمي وانكساري، إلى أن جاء اليوم الذي سمعت فيه بالصدفة خبر اقتحام مقرّات أمن الدولة عبر المذياع، فلم أشعر بنفسي إلا وأنا أندفع مع الحشود لنستولي على المقرّات ونكسرها ونشعل فيها النيران.. وبالصدفة وقعت في يدي عدّة ملفات كانت تخص قنّاصين، بعضهم يعمل لصالح النظام وآخرون لصالح بعض الجماعات المتطرّفة.. لفت انتباهي أحد التقارير التي تُشير إلى اختفاء القنّاص المشارك في محاولة اغتيال نائب الرئيس في ظروف غامضة، وأن هناك مخاوفًا من أن يتسبّب هذا الاختفاء في العديد من المشاكل المستقبلية.. حينها لمعت الفكرة في عقلي، وقرّرت خوض أول بطولة حقيقية لي من تأليفي وإخراجي.. فيلم هدفه إرهاق أعصابهم والتسليّة بهم.. فأنا لم أقتنع ولو للحظة واحدة أن هذا الجهاز سينهار أو سيتمّ تنظيفه وتطهيره، إنه مثل الوباء الذي لن ينتهي قبل أن يتخلّص منّا جميعًا، ولن ينتهي هذا العفن إلا بانتهاء النظام بأكمله وفنائه.

جهّزت كلّ شيء وكتبت سيناريو الأحداث كما تخيلتها في رأسي، مع مزجها ببعض الحقائق، وبمساعدة بعض الأشخاص تمكّنت من الظهور في الفيديوهات بمظهر قريب من القنّاص الحقيقي المختفي، كما في صوره في الملف الذي وجدته..

للأسف إلى هذه اللحظة لم أفعل الكثير نظرًا لإمكانياتي المحدودة.. لكنني مستمتع بالتجربة، وإن كنت لا أعرف إلى أيّ جحيم جديد ستقودني.. لكن ما أعرفه جيّدًا أنني أريد إستكمال اللعبة إلى النهاية. (*)

(*) نسخة طبق الأصل من مذكّرات مصطفى التي كان يحتفظ بها على حاسوبه الخاص.

(أ)

إنها معرفة ليست بالجديدة عليّ.. شيء معتاد أعرفه جيّدًا منذ أن التحقت بهذا الكيان.. لكنّ شيئًا ما تشوه داخلي ولم أعد أستطيع استكمال مهمّتي.. إلحاح الهروب من هذا العالم تملّكني تمامًا..

عبثًا حاولت التفكير بتعقل فلم أفلح في استعادة هدوئي وتوازني.. أشعر بالاستياء من نفسي ومن حياتي ومن الجميع.. لقد سقطت في الأعماق السحيقة لمستنقع مظلم قذر.. أستعيد فيه وقائع.. أستعيد دقائق مشحونة ومختلطة بدوّامة من التخبّط والحيرة والألم، ويغمرني العار ببطء، ببطء شديد، ولا يكفّ عقلي عن طرح صور تُعذّبني تقترب منّي وتبتعد..

ما الذي جرى لي؟! لم أكن هكذا.. أحاول أن أفهم.. أُحاول أن أستكشف ما في داخلي، ولكنّني لا أُبصر سوى دوّامة من الخيبة والحسرة.. فبعد انقضاء الدهشة الأولى تبدأ الحياة في رسم تعبير لا يوصف من الحزن والخوف داخلنا.. يكبر تدريجيًا مع انتهاء كل دهشة جديدة ومعرفة جديدة إلى أن نصاب بالتخمة من اليأس، ثم نفقد القدرة على الحياة، ثم نمارس اللامبالاة..

تمّ تحويلي إلى التحقيق وعقوبة بالجزاء لأني أعدت فتح ملف هذا المسكين المدعو مصطفى، وتمّ تحذيري بأن ملف خدمتي لم يعد يتحمّل أكثر من سقطتين، وبعدها سيكون عليّ التخلّي عن ردائي الميري..

لاحظت أخيرًا أنني لم أكن أعيش غير سجين يبحث عن بعض الحريّة وبعض الطمأنينة.. وأعلم أنني سأظلّ سجينًا لكلّ شيء اقترفته طوال حياتي..

ومن خلف أجفاني المغلقة تذكّرت وحدتي وسواد ليلي الطويل.. تذكّرت رشا وأمي التي ماتت وأنا طفل صغير بعدما أُصيبت بورم خبيث في المخ، ولم يُفلح معها أيّ علاج..

تذكّرت أبي الذي لحق بها بعدما أصابه الجنون..

تذكّرت مدرستي وأصدقائي..

تذكّرت مصطفى وهو جثّة هامدة.. تذكّرت رسائله..

تذكّرت لبنى حبّي الأول والأخير، حبّ الطفولة والصبا..

تذكّرت رشا التي دخلت حياتي لتُعوّضني عن خيبات وانكسارات كثيرة.. لكنّني كنت أتخلّى عنها في اللحظات الحاسمة في مستقبلي..

لكنّ المدهش أنني كنت أشعر بالبرودة واللامبالاة تجاه كلّ شيء كأنّه عالم غريب عنّي لا أعرفه.

ثمّة سؤال يُراودني دائمًا دون التوصّل إلى إجابة شافية:

- لماذا هذا التناقض داخلي؟!

فكّرت كثيرًا وخطر على بالي احتمال أن أكون مريضًا نفسيًا، فتصرفاتي مع الآخرين غير سويّة وغير منطقيّة.. إنني أحبهم وأكرههم في آنٍ واحد.

ولم أجد جوابًا لحيرتي، وظلّ هناك صوت داخل رأسي يصرخ:

ـ أنت فاشل.. فاشل.. فاشل.. فاشل.. فاشل!

* * *

(٣)

ذهبت إليها في الجريدة..

كانت منهمكة وسط الملفات، وضعت أمامها مذكّرات مصطفى.

انتبهت ورفعت رأسها نحوي، وغمرتها السعادة وهي تقول:

ـ كنت أُفكّر بك..

ـ وأنا أيضًا.. لم تغيبي عن ذهني طوال اليومين الماضيين..

ـ تفضّل..

جلست ثم تساءلت:

ـ هل يمكن أن تُقدّمي لي خدمة؟

ـ عيوني.. أنا لا أتأخر عنك أبدًا.

وضعت يدي على المذكّرات.

ـ هذه المذكّرات أُريد نشرها ضمن كتابك.. هل هذا ممكن؟

تساءلت بدهشة:

- مذكّرات من؟! مذكّراتك؟!

ابتسمت:

- مذكّرات الشخص الذي كنت أبحث عنه طوال الأيام الماضية.. لقد مات منذ أيام برصاص قنّاص مجهول..

- تقصد مصطفى؟

هززت رأسي:

- نعم.

- ما حكايته؟

أجبت ساخرًا:

- كانت له قصّة رائعة.. حدثت في أروقة الكيان.. ستُضيف الكثير إلى كتابك..

- عن التعذيب وانتهاك الآدمية طبعًا!

ضحكت وقلت متهكّمًا:

- وهل لدينا شيء غيرهما نُقدّمه إلى كلّ زوّارنا!

- لديكم الكثير والكثير!

وأتبعت في استنكار:

- لكن هذا أمر غريب.. أنت من الأساس لست ضدّ التعذيب!

- لكنّي لم أُعذّب أحدًا!

ردّت بحدّة:

- لكنّك لست ضدّه، ولم تعمل على منعه، حتى حكاية البنت التي اعترضتَ على تعذيبها وتمّ وقفك عن العمل بسببها لم تكن حقيقية!

- وهل عرفتِ الحقيقة؟

- نعم.. ولم تفرق معي.

غمغمت:

- لكنّي فهمت.. فهمت الآن كلّ شيء.

- هل هذه مفاجأة بالنسبة لك؟! أنت تفهم كلّ شيء منذ البداية، وتُدرك تفاصيل كلّ ما يحدث في عملك!

صمتُّ قليلاً ثم قلت:

- لا أعرف ما الذي حدث لي.. أنا مرتبك وحائر.

- هل تلبّسك الندم؟

- لا.

- خائف؟!

- لا.

- تبحث عن بعض الراحة؟!

- ربّما..

- لكنّك لا بدّ أن تفعل شيئًا.. لا يمكن أن تستمرّ على هذا الحال!

- لا أستطيع.. أشعر أنني ممزق إلى نصفين.

- أنت تمرّ بوقت عصيب عاصف، والرياح شديدة.. كلّما وقعتَ تحت تأثير تجربة قويّة فمع القليل من الوقت ستتمكن من تجاوزها، ورويدًا رويدًا ستبدأ بالنسيان..

- أتمنىٰ ذلك.

ثم قالت وهي تُحدّق في عيني لتبعث الطمأنينة داخلي:

- ثق بأن كلّ شيء سيكون علىٰ ما يرام.

ثم ابتسمت وهي تُومئ لي برأسها قائلة:

- سوف أقرأها، وإن كانت تصلح لكتابي سأضمّها إليه.

قلت بثقة:

- سيكون أهمّ جزء في كتابك.

- أتمنّىٰ ذلك، مع أني مؤمنة أنه لن يفرق كثيرًا عن كل الحكايات التي أعرفها وتعرفها أنت.

هززت رأسي مؤمّنًا علىٰ حديثها:

- عندكِ حق.. هي لا تفرق كثيرًا عن أي حكاية نعرفها.

وقلت بامتنان:

- أنتِ واحدة من القلائل الذين سأُعاني جدًا حتىٰ أجد بديلاً لهم!

- لكن بالنسبة لي من المستحيل أن أجد بديلاً لك!

وتركتها ورحلت.

* * *

(٤)

توقّف الزمن عندي في هذه الليلة، وألحّ علىٰ تعذيبي وتقليب مواجعي.. علّها تكون هي اللحظة المناسبة.. كنت أشعر بضيق يجثم علىٰ صدري وخدر يُثقل قدمي.. أرهقني التفكير والخوف الصامت.. تلاطمت الخواطر علىٰ رأسي، ولم أعد قادرًا علىٰ شقّ الطريق لها، ولم يتضح لي شيء، فالضباب يُحيط بي من كل جانب.. وقلت لنفسي:

- لا يوجد درب.. لا يوجد درب علىٰ الإطلاق..

أصبحت الحيرة مشتعلة وسط رأسي.. أشعر أني مثل الذي أصابته لعنة جعلته يعيش الأحداث في الحياة علىٰ عكس حقيقتها.. متخبط ومرهق بلا حماسة..

وقفت أمام المرآة ورأيت نفسي بوضوح تام.. كنت صغيرًا ومنكمشًا ومنكسرًا.. ضئيلاً أمام خوفي وعُقدي..

لم يكن لديّ أيّ خطة واضحة المعالم لكيفية إعادة حياتي مرّة أخرىٰ.. لم أكن أعرف كيف سأبدأ.. فقط بعض الأفكار المشتّتة الحائرة.. لكنّ الأحداث تتحرك والوقت لديّ محدود..

عدت إلى سريري والنوم يناديني، لكنّي تجاهلته وظللت واقفًا كأنني نسيت فجأة ماذا عليّ أن أفعل.. كنت تائهًا في دائرة القلق، متعبًا بعض الشيء، بودّي أن أُنهي هذا الكابوس الذي سقطت فيه، وأجتاز ذلك الامتحان المعقّد اللامفهوم، حتى أعود إلى نشاطي العادي..

هبطت صورة رشا أمام عيني، كنت مشتاقًا لها.. كنت أريدها بجواري في هذه اللحظة.. لكن لم يكن هناك سبيل لتحقيق ذلك.

بعد ساعات هدأت وبدأ القرار ينبت داخلي إلى أن تكّون.. وبدأ الوضوح ينجلي.

كان الصباح قد طلع.. دسست أطراف قميصي تحت بنطالي وأحكمت ربطة العنق، صفّفت شعري ولمّعت حذائي وتطيّبت ببعض العطر، وارتديت جاكت بذلتي.. ثم طقطقت أصابعي وخرجت.

* * *

(٥)

السيد معالي وزير الداخلية

تحيّة طيبة وبعد

بداية أتقدم لسيادتكم بجزيل الشكر والتقدير على ما لقيته من دعم متواصل وحسن معاملة منكم شخصيًّا، ومن زملائي الأفاضل خلال فترة عملي في القطاع، ممّا كان له الأثر الطيب في نفسي.

وأفيدكم علمًا بأنه نظرًا لظروفي الخاصة وأسباب شخصيّة أخرى فإنني وبكلّ ما في نفسي من مشاعر ومحبّة أتقدّم لسيادتكم باستقالتي من العمل.. وأرجو منكم التكرّم بقبولها..

وتفضّلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير

توقيع:

عقيد/ مجدي المهندس

انتهى جزء من القصة.. لكنّ الحكاية لم تنتهِ

٢٠١٢/ ٢٠١٣

إبراهيم المحلاوي

Ibra2010@gmail.com

facebook.com/ibra2020

twitter.com/Ibra_Elmahalawy

دراغونوف

حينما انتقل العقيد مجدي المهندس إلى قسم مراقبة الإنترنت في أمن الدولة بعد غضب قياداته عليه؛ لم يكن أحد يعلم أنه سيتولى أهم قضية.. بدأ الأمر بتدوينات وفيديوهات على الإنترنت من شخص ادّعى أنه قنّاص تمرّد على رؤسائه بعد فشله في عملية اغتيال نائب الرئيس، وبدأ يكشف أسرارًا ما كان ينبغي لها أن تظهر..

وحينما يحاول مجدي الإيقاع به يكتشف أن الأمر أخطر وأبعد بكثير مما ذهب إليه خياله.. وأن ذلك القنّاص هو أقلّ ما يجب أن يقلق بشأنه..

رواية تخوض بنا في كواليس ما يحدث في الأجهزة الأمنية وعالم الجماعات الإرهابية والقنّاصين المأجورين.



إبراهيم المحلاوي..

كاتب وروائي مصري، من مواليد ١٩٨٨.. تخرّج عام ٢٠١١ من كليّة طب الأسنان .. صدرت له رواية عام ٢٠١١، ورواية عام ٢٠١٢.ودراغونوف هي روايته الثالثة

